المُحقق الخاص

مجموعة تجليات من واقع قضايا الشرطة

أندرو فورستر

المُحقق الخاص

مجموعة تجليات من واقع قضايا الشرطة

تأليف
أندرو فورستر

ترجمة
إسلام سميح الردان

مراجعة
شيماء طه الريدي

هنـــداوي

المُحقق الخاص

أندرو فورستر

The Private Detective

Andrew Forrester

الناشر مؤسسة هنداوي
المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦ / ١ / ٢٠١٧

يورك هاوس، شييت ستريت، ويندسور، SL4 1DD، المملكة المتحدة
تليفون: ٨٣٢٥٢٢ ١٧٥٣ (٠) ٤٤ +
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: https://www.hindawi.org

إنَّ مؤسسة هنداوي غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره، وإنما يعبِّر الكتاب عن آراء مؤلفه.

تصميم الغلاف: عبد العظيم بيدس

الترقيم الدولي: ٥ ٢٢٢٩ ٥٢٧٣ ١ ٩٧٨

صدر الكتاب الأصلي باللغة الإنجليزية عام ١٨٦٨.
صدرت هذه الترجمة عن مؤسسة هنداوي عام ٢٠٢١.

جميع حقوق النشر الخاصة بتصميم هذا الكتاب، وتصميم الغلاف، والترجمة العربية لنص هذا الكتاب مُرَخَّصة بموجب رخصة المشاع الإبداعي: نَسْبُ المُصنَّف، الإصدار ٤,٠. جميع حقوق النشر الخاصة بنص العمل الأصلي خاضعة للملكية العامة.

المحتويات

١- الكاهن والبخيل ٧
٢- مشكلات «فتاة مثالية» وهروبها ٣٧
٣- إحباط «مكيدة» في السكة الحديدية ٤٧
٤- بوليصة التأمين على حياة السيدة فيتزجيرالد ٦٣
٥- إيميلي إتش ... قصة حزينة ٧٥

الفصل الأول

الكاهن والبخيل

في جُزءٍ من العاصمة الكبيرة، يُشار إليه في خريطة لندن الموجودة عند المدير العام لهيئة البريد بالمنطقة الشمالية الغربية، ثمة مجموعةٌ أو عَددٌ متشابكٌ من الشوارع الضيقة، والميادين، والساحات، والأزقَّة، تَكْتظُّ منازلُها المُتقوِّضةُ القذِرةُ بالرجال والنساء والأطفال، الذين (باستثناء عُمال المرافئ ونسَّاجي مقاطعة سبيتالفيلدز) ربما يُعانون «لتلبية مُتطلَّبات حياتهم الأساسية» أكثرَ من أي مجموعةٍ مُناظرةٍ لهم من رعايا الملكة. إن الحَيَّ من النوع الذي ربما يأمُل أُومولِيجان ابنُ مدينة بالي موليجان (أحدُ معارف السيد ثاكاري) أن يجد فيه غُرفةً يستأجرها تكون مناسبةً لموارده المالية، إذا لم تكن مناسبةً لذَوْقه أيضًا، لكنَّ أيَّ رجلٍ من الطبقة الاجتماعية العُليا يسكن قريبًا من ذلك المكان ربما يُلتَمس له عُذرٌ معقولٌ كذلك عندما لا يُلِحُّ في استضافة أصدقائه هناك، ويُفضِّل أن يعطي عنوانَه للناس على «النادي». ربما يكون بعضُ قُرائي قد سَمِعوا عن المنطقة التي أُشير إليها — والقليل منهم قد يعرفُها — تحت اسم سومرز تاون.

في غرفةٍ داخلَ واحدٍ من أفضل المنازل الكائنةِ في واحدٍ من أفضل الشوارع في هذا الحَيِّ، وهي غُرفةٌ وُصفَت في شهاداتٍ متضاربةٍ من نواحٍ أخرى بأنها «عُليَّة بائسة»، ومنذ سنواتٍ قليلةٍ مضت، كان رجلٌ عجوزٌ وحيدٌ لا أصدقاء له يُحتضَر ببطء؛ وحيث إنني في الحقيقة، لا أكتُب قصصًا خيالية، وإنما أُدوِّن تاريخًا في قالبٍ أدبي، فربما يكون من الجيد أن أتَحرَّى الدقَّة وأن أعتَني بالتفاصيل بعض الشيء، وأقول إن هذه القصة تبدأ في الثامن والعشرين من شهر فبراير، سنة ١٨٤٧. كان ذلك في صباح يوم الأحد. كان العجوز يُدعى كاريه؛ ماتورين كاريه. كان في السابعة والسبعين من عمره، وكان يبدو عجوزًا تمامًا كسِنِّه المُوضَّح في سِجلِّ المعمودية الذي دُوِّن فيه. كان كاريه من مواليد فرنسا، لكنَّه عاش

سنواتٍ عديدةً في لندن. جاء إلى لندن من جزيرة جيرسي، وكان قد وصل إلى تلك النقطة المُتنازَع عليها قادمًا من جنوب فرنسا.

إنَّ مَن عَرفُوه جيدًا من الناس، مع استثناءٍ واحد، قد رَثَوا لحاله أشدَّ الرِّثاء؛ فقد انتَزعَ سنُّهُ، وعلاماتُ الفقرِ الخارجيةُ البادية عليه، الكثيرَ من المُجامَلات اللبِقة من الأيرلنديين المُعوِزين المتعصِّبين للدين الذين كانوا يتردَّدون على المعبد الروماني الكاثوليكي المجاور لمنزله، وفي الوقت نفسه حَجَبه ذلك جيدًا جدًّا عن أن يَنتبِه له الأعضاءُ الأغنى في تلك الطائفة، لدرجة أنَّ من الواضح أنه لا المُحامي الذي سيبرُزُ في هذه القصة، ولا القسُّ الذي أقسَم فيما بعدُ أنه ظل على مدار ثلاث سنواتٍ قبل وفاة كاريه المرشدَ الروحيَّ له، كانا في تلك اللحظة تحديدًا على درايةٍ بوجود مثل ذلك الشخص. يظن البعضُ أنه لم يذهب قَط إلى حُجرة الاعتراف، ويُقال إن ذَهابه إلى الكنيسة كان بغرض الحصول على الإعانات المادية أكثَر من كونه للحصول على الإرشاد الروحي أو المُواساة النفسية.

أحاط بالرجُل غُموضٌ لم يهتمَّ أحدٌ بالنفاذ إلى غَوْره؛ فقد سُمِعتْ بعضُ الشائعات عن زِيجةٍ كان هو أحد طرفيها؛ ووجود زوجةٍ مُخلصة، وطفل، لكنَّ هذه الشائعاتِ تلاشت بالسرعة نفسها تقريبًا التي راجت بها. لم يكن مَورِد رزقه الأساسي معروفًا. اعتَقَد البعض أنه كان يَجْني القليل من الشلنات بين الحين والآخر من تدريس لغته الأم ولغاتٍ أخرى. لقد كان، في الحقيقة، في بداية حياته يَتَكسَّب من هذا العمل في كثيرٍ من الأحيان، وظلَّ يجني القليل من المال من التدريس إلى أن أُنهِك تمامًا على يدَي المَرضِ الذي جعله على مَقربةٍ من شبَح الموت المُروِّع.

ربما يُهمُّ القارئَ كذلك أن يعلَم أن ماتورين كاريه كان لاجئًا سياسيًّا، وأن سبب نفيه هو ارتباطه بما آل إليه مَصيرُ الملك شارل العاشر من السقوط وزوالِ عرشه؛ فقد ظل لسنواتٍ كثيرةٍ يتقاضى معاشًا من اعتمادٍ ماليٍّ خُصِّصَ لإعالة اللاجئين المُنتَمين لهذا الحزب. لقد بلغَ هذا المعاشُ في وقتٍ من الأوقات أربعين جنيهًا في السنة، لكنه تقلَّص إلى خمسة عشر جنيهًا.

عندما كان تحفُّظُه المعتادُ يتخلَّى عنه، كان يحكي قصصًا عن روبسبير وعهد الإرهاب، وليس ثَمَّةَ مبررٌ لاتهامه بالكذب عندما أصَرَّ على أنه لو كان رَضِي بالعمل تحت إمرة الطاغية العديم الرحمة، لربما كان أدَّى دورًا مهمًّا في الأحداث المثيرة المُروِّعة للثورة الفرنسية، بدلًا من إرغامه على أن يجد الأمان في منفًى بائس.

لكن الشائعات المثيرة حول وجود زوجةٍ وطفل كانت محض تخيُّلات. إنه لأمرٌ مشكوكٌ فيه إن كانت طبيعته المُنفِّرة تلك قد ألانَتْها مشاعرُ الحب الرقيقةُ يومًا. لقد كان أعزب، وظلَّ وقتًا طويلًا وبصورةٍ مطردةٍ يُظهر بُغضًا شديدًا لمجتمع النساء. يُقال إنه كان يُؤدِّي جميع الأعمال المنزلية بنفسه ما دام ذلك ممكنًا، وإن سريره في سومرز تاون لم تُسوِّه أو تُنظِّمْه قَط، بقَدْر ما يُعلم، أيُّ جِنِّيةٍ أو حيزبون في صورةٍ بشرية. كان يأكل أبسَطَ وأرخَصَ طعامٍ معروضٍ للمشترين في الأسواق التي لا تحوي شيئًا من أسباب الرفاهية. إذا تَخيَّل القارئُ أبأسَ حالةٍ قد يتحمَّلُها عجوزٌ وحيدٌ، فسيكون عنده تصوُّرٌ حقيقيٌّ لنوعية الحياة التي كان يحياها ماتورين كاريه.

لقد وصَفتُ الرجل العجوز بأنه يُحتضَر. لقد كان مُدرِكًا للأمر، لكنه كان يتوق، كحال جميع البشر تقريبًا — ولا يُستثنى من ذلك أكثرهم بؤسًا وكآبة — إلى أن يُطيل ما تبقَّى من أيام حياته إلى أقصى مدًى لها. إن أعمال البِر المسيحية، في نهاية الأمر، ليست نادرةً جدًّا كما يُقال عنها في الغالب؛ فالرعاية الطبية، في جميع الأحوال، في مُتناوَل أكثرِ الناس فقرًا وأبعدِهم عن الأنظار، واستشارةُ الطبيب ودواؤه، مبذولان دون أجرٍ لكل من يختار أن يطلبهما بهذه الشروط. لم يكن ماتورين كاريه مُسنًّا متكبرًا. لقد طلَب معونة طبيب، يعمل لحساب الكنيسة التي يتردَّد عليها، وقد أُمر ذلك السيدُ المحترمُ بزيارة المنفَى. وقد مرَّ عليه ليزوره في وقتٍ مبكرٍ جدًّا من صباح يوم الأحد، الموافق الثامن والعشرين من شهر مارس، سنة ١٨٤٧.

كان المريض البائس مُمدَّدًا على شيءٍ كالصندوق، بدلًا من هيكل السرير. عندما جاء الجرَّاحُ، بعد قُدَّاسٍ مبكرٍ، ليزوره ويصف الدواءَ اللازمَ لحالته، كان مالكُ المنزل، الذي أوصل الابنَ البارَّ لِأسكوليبيوس إلى العُليَّة، حاضرًا في مقابلةٍ جرت بينهما، وانتَبه إلى مُحادثتهما.

كان واضحًا للعينِ الثاقبةِ غيرِ المُتخصِّصة، مثلما كان واضحًا لأمهرِ العيونِ في تشخيص الأمراض، أنه لم يَتَبقَّ في حياة ماتورين كاريه الكثير، ولا يستطيع أيُّ مالكِ منزلٍ ألَّا يَكترثَ تمامًا لمصيرِ مُستأجِرٍ لديه يُحتضَر؛ لذا نستطيع أن نلتمسَ له العذر لوجوده طرفًا ثالثًا في هذا الموقف. مما يجدُر بالملاحظة، رغم هذا، أن المريضَ اليائس الذي يُكابِد الألم لم يكن راغبًا على الإطلاق في المشاركة في تلك المواساة الروحية، التي قيل لي إن المذهب الكاثوليكيَّ قد يُغدِقها في مثل هذا الوقت بسخاءٍ أكبرَ مقارنةً بالمذهب البروتستانتي.

لم تكن هذه أوَّل زيارة للطبيبِ لكاريه، وقد أوصى رَجلُ الطب من قبلُ باستدعاء أحد الكهَّان، لكنَّ نصيحته كانت أبغضَ من محتوياتِ زجاجاته وعُلبِ حبوب الدواء التي معه. في صباح يوم الأحد الذي أتحدَّث عنه، كَرَّر الجرَّاحُ اقتراحَه البغيض. كانت النزلةُ الشُّعَبية قد عَمِلَت عملها تقريبًا في جهازٍ تنفسيٍّ واهن. كان من الممكن، أن تُلقى الأدوية للكلاب، أو في مجرى الصرف العام، كما تُلقى لنصيرِ أُسْرة بوربون الزائلة المُحتضَرِ في حلقه الصافر المُصاب بعُسر التنفُّس. لم تكن وسيلة الراحة الحقيقية الوحيدة للمريض المتألِّم تُحفظ في القُدور الخزفية التي يستخدمها الصيادلة، ولا في دُرج أحد الجرَّاحِين. لم يكن عند كاريه مواردُ ماليةٌ ظاهرةٌ لشراء الغذاء المناسب لرجلٍ على حافة الموت، ولم يكن ثَمَّةَ مالٌ تحت تصرُّف الطبيب ليُنفِقه على إحضار وسيلة الراحة تلك.

قال الطبيب بالفرنسية، بعدما جَسَّ نبض مريضه؛ إذ كان فرنسيًّا: «حَسنٌ، حَسنٌ. أَصغِ إليَّ جيدًا من فضلك، أعتقدُ أن حالتكَ قد صارت أسوأ قليلًا مما كانت عليه أوَّل أمس، هل أطلُب من الأب أندروز أن يأتي لزيارتك؟»

هَزَّ العجوزُ رأسه بمشقةٍ، وغَمغَم بكلمةٍ مُمانَعة.

«سأُرسِل لك ترياقًا آخر.» هكذا أجاب الجرَّاحُ، الذي أدرك من الصدمة التي سبَّبَتْها نصيحتُه السابقةُ أن اقتراب الموت لم يُثِر المشاعر الدينية الكامنة في المريض.

بعد لحظاتٍ قليلةٍ قال الطبيب مُلتفِتًا بعينَيه جهةَ مالك المنزل: «أعتقِد أنه يجدُر بصديقنا أن يأذنَ لي باستدعاء الأب توماس.» وكأنما أراد أن ينال مزيدًا من التأثير من هذه الجهة، وعلى أملِ أنَّ اعتراضًا شخصيًّا من المريض على الكاهن الذي ذُكر اسمُه أولًا، هو ما أدَّى على الأرجح إلى رفضِ خِدماتِه الكهنوتية.

أبدى مالكُ المنزل موافقَته على هذا الرأي، لكن المُستأجِر صَرخَ بغتةً وبتشنُّجٍ قائلًا: «لا!» وارتمى على الفراش.

كان واضحًا جدًّا أن السيد كاريه لم يرغَب في الاستفادة من المُواساة النفسية التي يُقدِّمها الدِّينُ الذي يَعتنِقه. عساي لا أستطيع القول إنَّ من المؤكد أنه لم يكن يؤمن بفعالية الدين الذي يَعتنِقه! أليس من المعقول افتراضُ أن يكون الرجل المُحتضَر قد ظلَّ لفترةٍ من الزمان، وحتى هذه اللحظة، غيرَ مُؤمنٍ بالأديان كلها، وأنه بالرغم من عدم غَفلتِه عن يد الموت التي أمسَتْ فوقه، فإن اقترابها لم يخترق الظلامَ الذي ولَّدَته في نفسِهِ الأنانيةُ غيرُ المؤمنةِ، وفقدانُ التعاطفِ المُتبادَل بينه وبين رفاقه، طَوالَ حياته المُنعزِلة؟ دون توسُّعٍ في

الافتراض، فإن من الممكن يقينًا أن يُدوَّن بوصفه حقيقةً، أن ماتورين كاريه لم يكن، في صباح يوم الأحد ذاك، مُؤهَّلًا لأنْ يُعَدَّ «كاثوليكيًّا صالحًا». هكذا اعتقد الطبيب، ورغم أنه لم يرغب، بناءً على ذلك، في التراجُع عن الوجود إلى جوار سرير العجوز، ولم يَنزِع عندئذٍ إلى الاستياء من الكُفر الفظِّ بعقيدته، بالتوقُّف عن إمداد الرجل بالدواء، فقد رأى أن ليس ثَمَّةَ جَدْوى في هذا الموقف من المُضِي في تنفيذ نصيحته، التي اتَّسمَت بكل مظاهر الطيبة التي لا شكَّ فيها، والنزاهة، ومُلاءمة الوقت، بأنْ يستدعي له أيًّا من الكاهنَين اللذَين ذكرهما.

بعد دقائقَ قليلةٍ، وبعدما تعافى المريضُ قليلًا من الصدمة التي سبَّبَتْها هذه المحادثة، انسحَب الطبيب.

بينما كان يَهبِط على درجات السُّلَّم، لاحظَ مالكَ المنزل ينزل خلفه مباشرةً. لقد غادر ذلك الشخصُ العُليَّةَ مع الضيف الجرَّاحِ المُحسِنِ ليُجامله مجاملةً بسيطةً بأن يفتح له باب الشارع ويُغلِقه خلفه، وفي أثناء ذلك تبادلا بعض الكلمات.

قال الجرَّاح: «مسكينٌ هذا الرجل، إن ما أستطيع أن أفعله من أجله إما قليلٌ أو منعدم، إنه في حاجةٍ لنبيذ البورت المُحلَّى وجذور نبات المرنطة الاستوائي، وأشياء من هذا القبيل، لكن من المستحيل أن يتَمكَّن من الحصول عليها. إنها حالة مثيرة للشفقة والحزن.»

أذهلَتْ هذه الجُمَل المُتجزِّئةُ مالكَ المنزل، لكنَّ السبب وراء تأثيرها هذا لا يزال مُمتنعًا عن التعليل. كل ما نعرفه هو أنَّ تحفُّظَ المُستمِع قد زايلَه، وأنه تخلَّى في الحال عن سرٍّ حقيقيٍّ أو مُدَّعَى، كان قد ادَّخره مدةً طويلةً بوصفه سرًّا ذا قيمة.

ردَّ مالكُ المنزل في شيءٍ من التهوُّر: «يا للهول يا سيدي! إن لديه الكثير من المال، فَلْتطلُب ما تراه مُحتاجًا إليه؛ فبإمكانه أن يشتري أي شيء.»

إن شخصًا مُدقِّقًا، أو بارعًا في اكتشاف الأفكار الدفينة والمشاعر شبه المخبوءة، ربما كان سيتَمكَّن من ملاحظة تغيُّرٍ طفيفٍ يعلو وجه طبيب المؤسسة الخيرية الكاثوليكي غير المُتحمِّس ذاك. لم يُلاحِظ مالكُ المنزل شيئًا من هذا. هَزَّ الجرَّاح رأسه المُثقفَ، وكأنما شك في دقة المعلومة، ومضى في طريقه، وأغلق مالكُ المنزل الباب.

يبدو أنه كان لكلماتِ مالك المنزل تأثيرٌ غريبٌ أو شاذٌّ نوعًا ما على عقل الطبيب.

في حين بدا الحصول على وسائل الرفاهية الصغيرة تلك مُستحيلًا، وصفَ الطبيبُ النبيذ وجذور نبات المرنطة؛ لكنه عندما أُخبر أنها كانت في مُتناوَل يد المريض، عدَّها عبقريُّ الطبِّ هذا — تخمينًا ممَّا بدا من تَصرُّفه — غيرَ ضرورية. لقد أثارت ثروةُ الرجل المُحتضَر المزعومة اهتمامًا جديدًا وغير عاديٍّ بسعادته الدينية.

عندما رأى الطبيبُ مريضَه في البداية، نصَحَه بالتأكيد باستدعاء أحد القساوسة، لكنه، كما أسلفتُ، لم يُلحَّ في نصيحته؛ لكن الآن، وقد أصبح لديه مُبررٌ ليَفترِض أن الرجل المُحتضَر لديه الكثير من المال، أضحى إنقاذُ روحه أمرًا ضروريًّا، إذا أمكن، ولو على خلاف إرادته؛ لذا لم يَعُدِ الجرَّاح على الفور إلى بيته، وإنما توجَّه في الحال إلى الكنيسة القريبة منه، وأخذ يتَشاوَر مع الأب أندروز.

اسمَحوا لي الآن أن أقول كلمةً أو كلمتَين عن ذلك القس المتحمِّس. لن أحاول تصوير ملامحه بالقلم والحبر. إن صورة كاهنٍ كاثوليكي لَتُشبه كثيرًا صورة غيره من الكهنة الكاثوليكيين، لدرجة أنني لو فعلتُ لَأرهقتُ القارئ من دون داعٍ. إن النظام، أو المنظومة التي تَسحَق أو تقضي على التفرُّد العقلي للخبراء من عناصرها، تُشوِّه بطريقةٍ ما تلك الفروقَ البارزةَ التي تُميِّزُ بها العنايةُ الإلهيةُ كلَّ وجهٍ بشَريٍّ في طفولته. هل سَبق للقارئ قبل ذلك قطُّ أن رأى كاهنَين كاثوليكيَّين يسيران في الشارع، جنبًا إلى جنب؟ إذا كان قد سبَق له هذا، فإنه ما لم يكن بينهما تفاوتٌ كبيرٌ في العمر، أو ما لم تَفُقْ قامةُ أحدهما قامةَ أخيه بستِّ بوصاتٍ، فلن يستطيع سوى أحد المعارفِ المُقرَّبين للغاية أن يكتشف فرقًا واضحًا في ملامحهما. إن وجهَي أيِّ كاهنَين كاثوليكيَّين لهما العَدد نفسه من سنوات العمر، عند التجاوُر معًا، لَيُسفِران عن تشابهٍ بينهما تقريبًا كذاك التشابه الوثيق بين حبَّتَيْ بازلَّاء استُخرِجَتا من قرنٍ واحد؛ لذا سيكفي القولُ إن الأب أندروز كان رجلًا مهيب المِشية، يمشي على الأرض مِشيةَ مَن يُدرك أن له سُلطةً هائلةً على أقرانه. كان في الخمسين من عمره تقريبًا، لكنَّه كان يُواجه هموم الحياة وصرامة الكفارات التي كان يُلزِم بها نفسه، ببنيةٍ جسديةٍ قوية، وربما لهذا السبب كان الناس يظُنون أنه شابٌّ أصغر من سنه الحقيقي. ولو كان الاستدلال بمظهره الخارجي على أي شيءٍ من صفات شخصيته أمرًا موثوقًا ومأمونًا، لَكان هذا الشيءُ هو أن الأب أندروز له إرادةٌ ماضيةٌ مُستقلَّة، تُسيطِر على حذَره الفطري، إن لم تكن تُخضِعه.

لقد كان مشهورًا بكَونِه كاهنًا متحمِّسًا، لكنه لم يكن من طائفة اليسوعيين. كان في الواقع حريصًا أشد الحرص على أن يعرف الناسُ أن رأيه في ممارسات وأتباع القديس إغناطيوس لويولا لم يكن إيجابيًّا.

ومع ذلك سأكُون قد ظلَمتُه إذا لم نَعترِف بما تُوضِّحه هذه القصة؛ وهو أنه كان يَعُد ازدهار وارتقاء مصالحِ كنيسته الهدفَ الأساسيَّ، أو ربما الوحيد، لوجوده في الحياة.

هذا هو الشخص الذي قصده الطبيبُ من دون إبطاء. لم يكن الكثير من الوقت قد مَرَّ على انتهاءِ مَراسمِ قُدَّاسٍ مُبكِّر كان قد أقامه حين دخل صديقُه الكنيسة.

«صباح الخير أيها الطبيب.» كانت هذه التحية الوحيدة التي ألقاها القس.

ردَّ الجرَّاح بنبرةٍ أكثر نشاطًا: «صباح الخير.» نظَر كلٌّ من الرجلَين الفاضِلَين إلى صاحبه نظرةً عَجلى مُتعمدةً، وتصافحا في فتور. كان ثَمَّةَ فترةُ صمتٍ قصيرة في بداية المحادثة. ربما كان القَس يعتقد أن من حق أتباعه أن يقولوا ما يُريدون قوله دون أن ينتظروا سماع السؤال الشكلي عما يريدونه. كان الطبيب يُدركُ قيمة الاقتراح الذي سيقترحه؛ لذا لم يتَعجَّل في الإفصاح عنه.

قطَع الكاهنُ الصمتَ بسؤاله: «ما الأخبار أيها الطبيب؟ هل يحتاج أيٌّ من مرضاك الأثرياء، الواقفين على شفا الأبدية، إلى الطقوس الدينية لكنيستنا المُقدَّسة؟»

أجابه الجرَّاح: «لا أيها الأبُ المُوقَّر، لكنَّ ثَمَّةَ رجلًا مُسنًّا عاجزًا، يعيش في أحد الشوارع المجاورة، ومعروفًا عنه فقرُه الشديد لدرجة أنه كان يتَناوَل طعامَه من هِباتنا الدينية، يُحتضَر، وقد اكتشَفتُ أنه في الحقيقة مُحتالٌ وبخيل، وأنه يدَّخِر ثروة. لقد ألححتُ عليه كي يتصالح مع الربِّ ومع كنيستنا المُقدَّسة. أعتقد أنه يجدُر بك أن تزوره يا سيدي.»

أدركَ الكاهنُ السريعُ البديهة في الحال مدى إلحاح الأمر، ووعَد بأن يُعيرَه اهتمامه على الفور؛ عندئذٍ صافَح الكاهنُ الطبيبَ بحماسةٍ نوعًا ما، وانطلَق الأخيرُ يواصل زياراته. هَروَل الأب أندروز إلى بيته، وتناول إفطارًا مُشبِعًا، وبعدما درس الدورَ الذي كان على وشك الاضطلاع به دراسةً وافيةً، ذهَب لزيارة البخيل المُحتضَر.

كان ماتورين كاريه جالسًا أو مُتكِئًا، شبه مُنتصبٍ، على فراشه القشِّي البائس، عندما دخل الأب أندروز الغرفة من دون أن تُوجَّه له دعوة، بعد مدةٍ قصيرةٍ لا تتعدَّى ساعةً أو ساعتَين من مغادرة الطبيب لها. لا أحد سوى الكاهن يستطيع أن يتحدَّث بما جرى أثناء هذه المقابلة المقدَّسة. لن أستقيَ من مُخيِّلتي وصفًا للطريقة التي تغلَّبَت بها إرادةُ الكاهنِ القويةُ على أنانية المَنفيِّ العنيدة، ولن أزعُم أنني سأقُصُّ كيف أُرشِدَ المُذنبُ ذو الرأس الأشيب إلى التوبة. كل ما تحقَّقتُ من ثبوته هو أن ماتورين كاريه فتح قلبه لِعِلْم مُرشِده الروحي. لقد اعتَرف كيف أنه كان يَجني أموالًا بين الحين والآخر، وكيف أنه، بالإفراط في حِرْمان نفسه، وبالكذب، والتظاهُر بالفقر، والتقتير، قد ادَّخَرها، واستَثمَرها مع فوائدِها التي ظلَّت تتراكم، حتَّى بلغ إجمالي المبلغ حوالي ١٠٠٠٠ جنيهٍ إسترليني، وقد بَقِي هذا المبلغُ فيما بعدُ في حسابه تحت الرعاية الموثوقة للولاية، ثُمَّ بعد ذلك، إما عملًا بنصيحةٍ من

الأب أندروز، أو انقيادًا لمشاعر الندَم المُنبعِثة منه هو، لن أُبدي رأيًا، سعَى ماتورين كاريه إلى التصالُح مع الربِّ بمَنحِ أقربائه الفقراء في فرنسا جزءًا صغيرًا من ثَروتِه المُتراكمة، ومَنح الجزء الأكبر منها لإحدى المؤسسات الخيرية الكاثوليكية. ابتهَج الكاهنُ المُتحمِّس عندما أدرك أنه بالفعل قد حَصَل على مبلغٍ ماليٍّ مقبولٍ جدًّا يصل إلى ٧٠٠٠ جنيهٍ إسترليني لنشْر دينه المقدَّس، وذلك بواسطة عمليةٍ أراحت ضميرَ المُوصِي. لكنَّ ماتورين كاريه تَوسَّل إلى قداسة الأب أن يُغدِق عليه من المُواساة التي يُقدِّمها الدين، وذلك في مقابل هذه المواريث التي أوصَى بها.

تمهَّلَ الكاهنُ قليلًا. كان لا يزال ثَمَّةَ إجراءٌ دنيويٌّ شكليٌّ صغير — ربما كان اختبارًا لصِدقِ نيةِ التائب — يَلزَم الخضوعُ له قبل مَنحِ هذه النعمة. على قصاصة ورقٍ كتَب الأب المُقدس بضعَ كلماتٍ بقلم الرصاص، ثم قرأها على التائب المُحتضَر، الذي عبَّرَ، بما يُشبِه الشهيق، عن مُوافقَته على هذا التخصيص لثروته، وبعدما انتهى الأبُ أندروز من كلِّ ما أمكَنه فعلُه هذا الصباحَ من أجل ازدهار دينه، منحَ البخيلَ اليائسَ الغفرانَ لحياةٍ طويلةٍ قضاها في الجشع والخداع. ظلَّ الأبُ أندروز في الغرفة بضع دقائقَ أُخرى، إلى أن سقطَ التائبُ المُتعَب — الذي أنهَكَته المحاكمة التي خضَع لها — فاقدًا الوعيَ تقريبًا على سريره، وبأرقِّ نبرةٍ يُمكِن لكاهنٍ أن يتكلم بها، همَسَ الأبُ أندروز مودِّعًا، وحَثَّ المسكين كاريه أن يُكرِّس أفكارَه كلها للرب، ثم غادر المنزل. كان الموقفُ مُرهِقًا لكلا الرجُلَين، لكنَّ النهاية أراحت كِلَيهما.

أرجو ألَّا يتذَمَّر أحدٌ من طلَب الأب أندروز المساعدةَ من أحد المحامين في يوم الأحد؛ فقد أقرَّت السلطةُ العُليا مشروعيةَ عمل الخير في يوم الأحد. وقد كان السيد كاريه على مشارف الموت. كانت قيمةُ الوقت غاليةً جدًّا. لقد تناقَص ما تبقَّى من حياة البخيل حتى صار أيامًا، أو ربما ساعات، ولكن كان الموت لا يزال قادرًا على حرمان الكنيسة من وصية أحد التائبين؛ لذا أَرسَل الكاهنُ رسولًا موثوقًا إلى واحدٍ من رعايا كنيسته أضحَى من الضروري الآن الحصولُ على مساعدَته. وبما أن هذا السيد قد ذهب لتقديم كشف حسابه الأخير في محكمةٍ للقيد لا يُسمَح فيها بالدُّفوع الخاصة، ويُجازَى فيها على جميع الفضائل والشرور، فلا بأس علينا إذا اعتقَدنا أنه قد أُنصِف، أو سوف يُنصَف، بموضوعية، لكنَّ هذا لا يُعفينا، بوصفنا رُواةً تاريخيين صادقين، من إنصافه إنصافًا عاجلًا في هذا السرد. لقد أعلَن أحدُ المُتشائِمين أن ذكرى الطيِّبين تموت معهم، وأن الشرَّ فقط هو ما يبقى بعد زوال الجنس البشري الضعيف. إن هذا قذفٌ أو افتراء. نحن نَعتقِد أن الشاعر الذي يقول: «إن أفعال

المُنصِفين من الورى تنشُر الأريجَ وتُزهِر من تحتِ الثرى.» أقرب إلى الحقيقة. على أيِّ حالٍ سوف أتعامَل بإنصافٍ مع هذا المحامي. سوف يُوضَع اسمُه عند الطباعة. كان يُدعَى كوك؛ جون أثناسيوس كوك، المُبَجَّل، المُحامِي في المحاكم العُليا. لقد ظل هذا السيد على مدى عشرين سنةً عضوًا فيما يُسمَّى «نقابة محامي العدالة»، مع أن بعض الناس (وبخاصةٍ أحد الروائيين اللامعين) قد ارتاب في دقة اللقب. لقد كان «صائغَ عدل» شهيرًا، وهي عبارةٌ عند ترجمتها إلى لغة العامة، تعني، في هذه الحالة، البارع في تحرير الوصايا وسندات الرهن الائتمانية لصالح الأوقاف الدينية الكاثوليكية. من غريبِ ما استدعى إعجابَ الشعبِ البريطاني المُستنيرِ في هذا العُمرِ المُفعَمِ بالحيوية والمغامرة، والمتمثلِ في حياة السيد كوك، أنه، وبواسطة إزميلٍ كاثوليكيٍّ، قد شقَّ طريقَه نحو الشهرة، إن لم يكن قد شقَّه نحو الثروة. لقد كان في السابق كاتبًا عند أحد المحامين، وكان بروتستانتيَّ المذهب، لكنه رَقَّى نفسه أو رُقِّي — على يد مَن، لا ندري، ما لم يكن على يده هو شخصيًّا ويد الكنيسة الكاثوليكية — إلى منزلةٍ أعلى في العمل القانوني، وإلى المذهب البابوي الأسمى. ظل السيد جون أثناسيوس كوك كذلك، وعلى مدى ثماني سنواتٍ قبل تاريخ هذه القصة، واحدًا من رعايا كنيسة الأب أندروز، وهكذا وبفضل امتداد الصلة الوثيقة طويلًا، ونتيجةً لاشتهاره بالبراعة في مثل هذه الأمور، نال المحامي شَرَفَ ثقة ذلك السيد المُوقَّر في هذه القضية.

لبَّى المحامي دعوة الكاهن بابتهاج.

شَهِد عصر يوم الأحد ذاك اجتماعَهما. عُرضت على المحامي المهمة المطلوبة منه. لكن السيد كوك أوضَح أن الصفقة كلها كانت «مخالفةً للقواعد قليلًا»، وتوسَّل إلى الكاهن أن يتبع العُرف الذي يقضي باستدعاء أحد مُحامِي المدينة ليُعلِّمه، فقط من قبيل الامتثال لما تقتضيه آدابُ المهنة، التي كانت تنظر إلى الأمور الشبيهة بهذا الأمر بعين النقد والريبة. استنكر الأبُ أندروز وساوِسَ المحامي، وراح يُذكِّره بالتزاماته المادية تجاه الكنيسة التي اعتنَق مذهبَها. وتساءل الكاهنُ في تهكُّمٍ إن كانت هذه هي المرة الأولى التي صنع فيها مُحامي المحاكم العليا، بنفسه، ودون تدخُّل أحد مُحامِي المدينة، معروفًا صغيرًا من هذا النوع لتائبٍ مُحتضَر.

أفصَح السيد كوك عن وساوسه. لقد شَعَر أن القوة التي صَنعَته تستطيع أن تُحطِّمه؛ فقد كان يَدين بكل ما يملكه للكنيسة التي كان خادمَها المتواضع، ومهما كانت المخاطَرة التي ستَتعرَّض لها منزلتُه المهنية، فلا بُدَّ له من طاعة أوامر كاهنه.

سحَب الأبُ أندروز من جيبه المذكِّرة التي حرَّرها في حجرة السيد كاريه، والتي وافق عليها ذلك المسكين البائس بدافعٍ من الرعب، أو ربما وهو بين الخوف والرجاء.

بعدما وعَد السيد كوك بتحرير وصيةٍ وفقًا لهذه التعليمات، وبعدما نسَخها بإتقانٍ بخط يده شخصيًّا، من أجل تضييق دائرة السر، سُمِح له بالانصراف من حضرة قداسة الأب. غير أن عليَّ ألَّا أغفُل عن القول إنه قد اتُّخذَت الاستعدادات من أجل اللقاء في مساء اليوم التالي بجانب سرير ماتورين كاريه. لقد اختير المساء؛ لأن تفكيرَ النَّهارِ المُفعَمَ بالندم، وتأثيرَه المُرهِقَ على عقلٍ دنيوي، كما قال الأب أندروز، ربما يُسهلان المهمة الوَرِعة المتمثلة في إكمال إجراءات الوصية. اقترح السيد كوك الصباح، لكنَّ الكاهن أجاب بأنه في وقتٍ كهذا قد ينتصر جشعُ الموصِي وأفكارُه المارقةُ على كل تأثيرٍ روحي. وهكذا عُين مساءُ اليوم التالي لتنفيذ وصيةٍ وافق المحامي على جلبها معه في جيبه.

أيها القارئ، لنتبع هذا المحامي الأريبَ إلى مكتبه؛ ربما يُسمَح لنا برؤية الحِرفيِّ القانونيِّ الماهر وهو في عمله. سوف يكون منظرًا غير مألوف. ربما تكون قد شاهدتَ بعض عمليات التصنيع، لكن إذا كنتَ شخصًا متأمِّلًا، فلا شيء يكاد يكون فذًّا إلى هذا الحد، ولا مُشوِّقًا، ربما (رغم أنه بالتأكيد ليس جميلًا)، بقَدْر الآلية التي عن طريقها كانت ولا تزال قَرابةُ شخصٍ ما — غالبًا ما يكونون أرامل، وأيتامًا، وآباءً طاعنين في السن — تُنْهَب، حتى في هذا البلد المُستنير، على يد مُحامِين عديمي الضمير، هم أدواتٌ في أيدي قساوسةٍ خبثاء. فهل ستلاحظ بعنايةٍ، عزيزي القارئ، المراحل المتنوعة التي سيمرُّ بها تصنيعُ وصيةِ كاريه؟

استيقظ المحامي مع انبلاجِ الصبح، بعد ليلةٍ من النوم المنقوص. لم يكن ضميرُه الذي اكتسَبه في أوائل سنوات رجولته قد تقَولَب في الشكل الدقيق، ولا أخذ الطابع المُحدَّد الذي ربما تمنَّاه له أساتذتُه الجُدد. لكنه برغم هذا لم يتردَّد طويلًا؛ فقبلَ بضع ساعاتٍ من وصول الصبيِّ النعسان، الزَّريِّ الهيئة، ذي الملامح الشريرة، المدعو كاتبًا، ولدهشةِ امرأة عجوز ضعيفة البصر، تُدعى الغسالة، كان المفترض أن تكون مشغولةً بتنظيف الغرفة القذِرة، دخل الغرفةَ السيدُ كوك! بعدما صَرَف تلك الحيزبون، استَغرَق في حُلْم يقظة؛ ومن ثَمَّ راح يُناجي نفسه قائلًا:

«عشرة آلاف جنيه! لا؛ سبعة آلافٍ وثلاثة آلاف! جيد؛ هذه صفقة رابحة!»

وهكذا ربما كانت، في الواقع، صفقةً رابحة في نظر الكاهن، كما ستُبيِّن هذه القصة.

أخذ المحامي يُحدِّق من دون انتباهٍ إلى أرفُف كتبه، ثم حوَّل نظرتَه من هناك إلى السقف المدهون باللون الأسود. لم يُوبخه أيٌّ مِن أولئك الأفاضلِ المذخورةِ أفكارُهم في تلك المقابر البديعة، ولا نفذ إليه اللومُ عبر السقف من سماءٍ قريبة. كانت الخرافةُ تلقي بتأثيرها على الموكِّلين.

واصل المحامي قائلًا: «إذن لقد رتَّبَتِ الأمرَ عنايةٌ إلهيةٌ خاصة. لم تكن قِسمتي ولا قسمة الأب أندروز. لقد قُسِّمت الأموال بالفعل إلى الجزأين اللذَين نريدهما.» وخدَع هذا الرجلُ الحصيفُ نفسه تقريبًا وأوهمها بأنه لم يمارس أي تحايلٍ في هذا الأمر.

«سبعة آلاف كاملة؛ هذه لكنيستنا المقدسة. ثلاثة آلاف من السندات الموحدة؛ هذا المبلغ لأقاربه. فلْأرَ. واحد، اثنان، ثلاثة، أربعة؛ سبعمائة وخمسون جنيهًا لكل واحد. رائع! مُنفذو الوصية الموثوقون سوف يديرون الوديعة، ويحفظون السر. من حُسن الحظ أن المال لم يُستثمر كله في مجموعةٍ واحدةٍ من السندات. ربما كانت ستُثير قسمتُنا نحن التساؤلاتِ وتُسبب المشاكل.» على هذا النحو مضت مناجاةُ المحامي نفسَه.

نهض من مكانه، وراح يَذرَع أرضيةَ ورشته جيئةً وذهابًا؛ ثم توقف، وجلس، وأمسك قلمًا في يده.

وصاح بصوتٍ شبه مسموع ولكن لم يكن ثَمَّةَ أحد يسمعه: «لا! إن لمنفِّذي الوصيةِ الأولويةَ الأولى، وأنا عادةً ما أبدأ وصاياي باختيارهم.» وسرَتِ ابتسامةٌ عابسةٌ في ملامحه الصارمة. لقد تذكَّر تعليقًا قاله الراحلُ السيد جوزيف ميلر، المشهور بظُرفه، يقول فيه: «اترك ممتلكاتك لمن تشاء، على أن تجعلني مُنفِّذًا للوصية.»

في هذه اللحظة بدأ يكتب بخطٍّ واضح، مثل أي كاتب. كان أول منفذي الوصية أسقف المقاطعة الكاثوليكي، والذي كان يَنعم حينئذٍ بلقبٍ أسقفيٍّ إنجليزيٍّ وليس من أيِّ إقليمٍ أجنبي.

«هل ينبغي أن يكون هناك أكثر من مُنفِّذٍ للوصية؟ فليكن.»

«مَن عساي أُعيِّنه مُنفذًا ثانيًا للوصية؟ أُعيِّن نفسي؛ ولِمَ لا؟ ربما لن يبدو هذا مناسبًا.»

تذكر المحامي أنه لم يرَ المُوصِي. واعتقدَ أن الرجل العجوز ربما يعترض على أن يكون مُنفِّذ الوصية مُحاميًا، ولم يكن السيد كوك ليخاطر بإخفاق الخطة بالاصطدام بمثل هذا الضرر. فتُرِك فراغٌ للاسم الثاني، وبُيِّتتِ النيةُ لملئه باسم كوك وعنوانِ شقته، في حال وافَقَ المُوصِي.

أُعِدت بقية الوثيقة من غير إبطاء. لم يكن من المناسب التوصية بالسبعة الآلاف للكنيسة الكاثوليكية بطريقةٍ مباشرةٍ وواضحة؛ كان هذا سيجعل الوصيةَ لاغيةً قانونًا. لقد أعلنت هذا حِكمةُ الهيئة التشريعية، في مرسومٍ برلمانيٍّ، منذ زمنٍ بعيد. لم يكن من المناسب إعطاءُ الكاهن حقَّ الاستفادة واضحًا فيها. ربما يعترض المُوصي المُحتضَر على هذا؛ علاوةً على ذلك، كان هذا مخالفًا لسياسة كنيسة روما. لا بدَّ أن يُترك المالُ في رعاية أحد الأمناء من أجل تحقيق هدفٍ تقي، وذلك لضمان وصول الفائدة أو حق الانتفاع للأبد إلى مُرشَّحي كنيسة ذا رومان كوليدج، التي تتولَّى هذه المهمة.

لا بدَّ من تحديد إحدى المؤسسات الخيرية الإنجليزية لتقوم مقام المُوصَى له المُستفيد من الميراث. أي مؤسسة عساها تكون هذه؟ كان هناك مدرسةٌ للبنات مُلحقةٌ بكنيسة الأب أندروز؛ ستكون هذه مناسبة تمامًا. كان ثَمَّةَ شيءٌ لطيفٌ بالفعل في الفكرة. كانت فكرة استنقاذ سبعة آلاف جنيهٍ إسترليني من أحد البخلاء، وتخصيصها لتعليم الفتيات، فكرةً رائعة.

وهكذا كتب المحامي: «أن يُوضع مبلغ سبعة آلاف جنيه في حفظ وعناية منفذي الوصية ليُخصِّصوا حصص الأرباح والدخل السنوي إلى الأبد لصيانة ودعم المدرسة المشار إليها.» غير أن تلك المدرسة ربما لا يكون لها وجود دائم. لقد اتخذ الحِرفيُّ الحاذِقُ الحيطةَ لهذا الاحتمال بكل سهولة. فمن خلال ما يُسميه المحامون «استعهاد»، أو فقرة شرطية، بأنه في حال لم تَعُد تلك المدرسة موجودةً، يجب أن يُستبقى المال وأن يُخصص لمؤسسةٍ خيريةٍ أُخرى شبيهةٍ بها؛ تمكَّن من التخلُّص في الحال من خطر فشل الحصول على الوديعة.

كان ثَمَّةَ شرطٌ آخر ضروري؛ إن الناس البارعين الذين كانوا يستخرجون أموالًا بهذه الطريقةِ من حوزة بخيلٍ مُحتضَر كانوا يحرصون على حماية استثمارها، وإبقاء العائدات في أيديهم. لقد أدخل السيد كوك فقرةً شرطيةً تنصُّ على أنه في حال تُوفِّي أحد الأوصياء على المال، أو ذهب للإقامة خارج البلاد، أو ضعف أو أصبح غير قادرٍ على التصرف، يجوز للوصي الآخَر تعيينُ زميل. هل من الضروري توضيح الآلية التي سيعمل بها ذلك؟ إن الشخص الذي سيُعيَّن للحفاظ على مقبولية المظهر الخارجي للأمور من العامة في عينَي المُوصِي، وعيني أي شخصٍ فضوليٍّ قد يذهب يومًا إلى جمعية دكتورز كومونز المَعنية بمحامي لندن، ويدفع شلنًا ليفحص أداء السيد كوك البارع — مجرد شخص تابع للكنيسة الكاثوليكية — سوف، أو ربما، يُدْعى للتخلِّي عن مسئوليته؛ وفي هذه الحالة قد يُرشح كاهنٌ آخر. بهذه الطريقة سيُضمن وصول المال بطريقةٍ فعالةٍ إلى الكنيسة. ربما يُنفَّذ هذا كما

تمنَّى أحدُ المجامع في روما، أو كما تمنَّى موظفوه هناك. لن يعلم أحد؛ لم يكن ثَمَّةَ شيءٌ حتى يتطلَّب تحقيقًا.

كاهنٌ مُحتال، ومحامٍ ماهر؛ خليطٌ يكاد يكون قادرًا على فعل أي شيء! إنكما تعتقدان أن مُدخرات البخيل، أو ما يربو على ثُلثَيْها على الأقل، قد استُلِبَت من أقرباء ماتورين كاريه؛ أولئك الغارقين في الفقر، الذين — وهم يبعدون عنه مسافةً كبيرةً، في جنوب فرنسا — ليس لديهم سوى فكرةٍ مُبهمةٍ غير واضحةٍ أن المَنفيَّ العجوزَ على قيد الحياة، وتعتقدان أنه قد جمع ثروةً خرافية. أنتما، أيها الكاهن والمحامي، الشخصان الوحيدان في إنجلترا اللذان يعلمان أسماء أقارب ماتورين كاريه. ربما يُوجَد مُتسعٌ من الوقت أمام أختٍ أو أخٍ ليُقدِّما تحية حبٍّ أخيرةً لهذا الوحيد البائس. سيكون ذلك لرجلٍ مثل هذا، على الأرجح، أكثر تعزيةً من طقوس دينكما. سيكون، على أي حال، عزاءً لأي رجلٍ مُحتضَر. لكنكما مع ذلك، لا تجعلان في خطتكما أو تدبيركما نصيبًا لإطلاع عائلة كاريه في فرنسا على أي شيءٍ بخصوص أخيهم المُحتضَر. أنت، أيها الأب أندروز، تزعم أنه لا يُضمر لهم أيَّ محبة. إنك تقول إنه أراد أن يَهبَ مُدخراته كلها لكنيستك، وإنك قد دافعتَ عن حقوق الأسرة وصلة الدم، وإنك حثثتَ التائب على توزيع حوالي ٣٠٠٠ جنيه بين أولئك الفقراء. سيكون بعض الناس حقيرين بما يكفي ليشكِّكوا في حقيقة ما تزعُمه. سوف أسوق تصريحك في هذه القصة، وأدع القارئ يحكم على مصداقيته وقيمته. إنه لَأمر مؤسِف، مع ذلك، أنَّ دفاعك عن حقوق الأسرة قد توقَّف عند الحدِّ الذي وصل إليه. ربما كان عندك دافعٌ ما أسمى، لكنني أعلم أنك أردتَ أن تحافظ على الشكل الخارجي للأمر. لو أنك فقط قد دبَّرت، عن طريق ممارسة تأثيرك الديني، لتعكس الترتيب — بإعطاء ٧٠٠٠ جنيه للأقارب و٣٠٠٠ جنيه للكنيسة — لَكان الأمر بدا أفضلَ من دون شك. لكن عليَّ ألَّا أُغفِل توضيحَ كل ما فعله خادمُ الكنيسة الكاثوليكية في إنجلترا، أو عبدُها المُشتغِل بالمُحاماة، بالتعاون مع كاهنه، لأقارب ماتورين كاريه. فقد كان لماتورين كاريه أخَوان وأخت على قيد الحياة، أو يُفترَض أنهم كانوا على قيد الحياة، وقتَ كتابة هذه الوصية؛ فقد تُوفِّيت له أختٌ بعدما تزوَّجَت وأنجبتْ أطفالًا. أُعطِي كلٌّ من الشقيقين اللذين على قيد الحياة ٧٥٠ جنيهًا من المبلغ المتاح، بينما قُسِّمت حصةُ الأخت المُتوفَّاة بين أبنائها الثلاثة.

بعدما أتم المحامي مُهمته إلى حدٍّ معين، نهض عن كرسيه مرةً أخرى، وخرج ليستمتع بتمشيةٍ صباحيةٍ في المنطقة المُعتمة المجاورة لمصنعه. لقد أنجز عمله بمهارة، وربما استمتع بإدراكه هذه الحقيقة البسيطة. من الأشياء المُرضِية التي كان من الممكن أن يشعُر بها

أولياءُ نعمته، لو كان بإمكانهم أن يُقدِّروها كما ينبغي، أن الكتابة كانت واضحة، ومفهومةً، وجلية. لم يُؤتمن أي شخصٍ آخَر على السر؛ لم يُستعَنْ بناسخٍ مهرطقٍ لأداء المهمة. إن الفائدة من ذلك ستكون واضحةً للقارئ.

بعد ظُهر ذلك اليوم انفرد المحامي بالكاهن مرةً أخرى للمُشاوَرة في غرفة الأخير، وابتسم الأب المُقدَّس بلطفٍ عندما طالَع الوثيقة، وأنعم على صديقه المُخلص بنظرة استحسان.

قال الكاهن: «أحسنتَ صنعًا يا بني. لقد أدَّيتَ واجبك تجاه كنيستنا المقدَّسة على نحوٍ ممتاز.»

انزلقت ابتسامةٌ باهتةٌ على ملامح المحامي القاسية. لقد سرَّه الإطراء. بعد ذلك عادت ملامحه إلى صرامتها المُعتادة. لقد أزعجته الهواجس حول صواب اشتراكه في هذا العمل. ماذا لو أخفقتِ الخطة، برغم كل حِيَلهم واحتياطاتهم؟ ماذا لو سمع بها أعضاء مجلس إدارة جمعية لينكولن إنْ للمحامين؟ ماذا لو حقَّقوا في القضية أو أصبحَت عاجلًا أو آجلًا موضوعَ تحقيقٍ قضائي؟ من البداية لم يستطع البتة أن يتخلَّص تمامًا من الخوف من اكتشاف أمرهم.

لاحَظ الكاهنُ هذه الكآبةَ بشعورٍ من الازدراء نحو مُحاميه، رجُلِ كلِّ المهام القانونية، ولم يقُل شيئًا بشأنها.

قال السيد كوك، بشيءٍ من الفظاظة: «سوف نحتاج إلى شاهدَين لن يستفيدا شيئًا من الوصية.»

كان الجواب الساخر الحاضر: «بالطبع سنحتاج لهما. إن لديَّ من العلم بالمحاماة ما يكفي لأُدرك ذلك، وقد جهَّزتُ اثنين مُناسِبين للأمر؛ شخصَيْن لن يرَيا أكثرَ مما أريدهما أن يرَياه. سوف يَشْهدان على توقيع الرجُل العجوز، لكنهما لن يرَيا أيَّ شيءٍ آخَر، أتعهَّد لك بذلك.»

لقد اتَّخذ أصدقاءُ الكنيسة وخُدَّامها كلَّ التدابير الآن.

بعد ذلك بقليل، زار السيدان الرجلَ المُحتضَر. لم يكن ماتورين كاريه في الحالة الذهنية التي توقَّعاها؛ لم تجعله تأثيراتُ النهار صاغرًا كئيبًا كما توقَّعا، بل وجداه مُجادِلًا وعنيدًا. كان يُشكِّك فيما إن كان المُتبقي من حياته قليلًا للغاية كما أخبره الطبيب. قال إنه لا يودُّ أن يترك وصية؛ لأن هذا يُوحي بالتخلِّي عن كل أملٍ في التعافي، وأغرَق في التذرُّع بمعاذير كثيرة أخرى مُبتذلة كي لا يُكمِل التوريث.

أثناء هذه المحادَثة أتت امرأتان لزيارة البيت الذي يسكنه كاريه. كانت إحداهما مُدبِّرةَ منزل الكاهن، وكانت الأخرى مُعلمة، وهي سيدةٌ تَدين له بالكثير من الأفضال.

من الممكن تخيُّل دورهما. إن زيارتهما تُفسِّر الردَّ شبه المُلغز الذي أجاب به الكاهنُ على المحامي. كان الأب المُقدَّس يعلم، كما قال، أن التوريث الخيري سيكون لاغيًا إذا لم يرَ شخصان مُتجردان من أي منفعة شخصية المُوصِيَ وهو يُوقِّع عليه، وإذا لم تُذيَّل الوثيقة بتوقيعهما كذلك. كان الأب أندروز، بِبُعد نظرٍ لطيفٍ منه، قد طلب من هاتين السيدتين أن تتبعاه — جاعِلتَين بينهما وبينه مسافةً تُوحي بالاحترام — إلى سرير المُوصِي المُحتضَر. كان من الممكن الاعتمادُ على مالك البيت وابنته، أو بعض المُستأجرين من الجيران، لأداء تلك المهمة التافهة من الشهادة على وصية الرجل المُحتضَر، لكن من حصافة الكاهن أنه قرَّر ألا ينال ذلك الشرف أحدٌ سوى شخصَين مُخلِصَين ممَّن يتناولون القربان المُقدَّس. ولا شك أنه ما من أحدٍ كان سيسرُّه أن يؤدي هذا الدور المُتواضع في الأحداث أكثر من هاتين السيدتين.

لكن لم يُقدَّر للأمور أن تسير كذلك؛ فقد اعترى كاريه عنادٌ عُضالٌ.

سمع الكاهن طرْقَ صديقتَيه المُتوقَّع على باب الشارع. إن تَخيُّل الهيئة التي بدا عليها في تلك اللحظة أسهل بكثيرٍ من وصفها. لقد أصابتْ نظرتُه صديقَه المُثقفَ بما يُشبه الهلع، لكن ممَّا يدعو للدهشة أنَّ شجاعة البخيل الواهن لم تَخُنْه تحت تأثير النظرات الماكرة المُستترة التي رمَقَه بها كاهن الاعتراف.

بدأ مالكُ البيت — الذي لم يكن ينتمي إلى «الدين الصحيح»، كما قد يكون القارئ تصوَّر — يرتاب في حدوث شيءٍ غير متوافقٍ تمامًا مع ما يعرفه عن صحيح الأعمال الروحانية. فتح باب الشارع، ومنع السيِّدتَين من التقدُّم أكثر من ذلك. لم يسمح لهما بصعود الدَّرَج قبل أن يُعلِم مُستأجرَه باسمَيْهما. وقد منحته الرسالةُ فرصةً كان يُريدها، ليرى ما الذي كان يجري في مسكن الموت. ووقع ما عزَّز أسوأ شكوكه.

أعلن الرسول اسمَي الضيفتَين الجميلتَين، وصاح الكاهن النافد الصبر قائلًا: «قل لهما أن تعودا لبيتيهما، لا أريدهما اليوم. سوف ألحق بهما قريبًا.»

وفعل مثلما وعد. كان الكاهن مُرتبكًا، شاعرًا بالمذلَّة، خائب الأمل، وكان يتميَّز من غَيْظٍ جَهِد كي يُخفِيَه، ربما كان نابعًا من الكبرياء، أو ربما كان سببه المكر، وكان يرجو أن يُعجِّل المرَضُ بتمكينه مرةً أخرى من توقيع ماتورين كاريه؛ لذا لم يُطِل المناقَشةَ أو المقابَلة أكثر من عشر دقائق بعد رجوع السيدتَين.

لقد أثَّر عليه جوُّ الغرفة المُغلقة أكثر مما أثَّر على البخيل الذي يلفظ أنفاسه الأخيرة. تاق الرجل الروحاني إلى نسمةٍ من الهواء النقي. رأى المحامي — الذي ظلَّ صامتًا طوال الجزء الأخير من المقابلة — أو خُيِّل إليه، أنه رأى رغبةَ الكاهن من خلال لون وجهه الذي أخذ يتغيَّر.

كان «صائغ العدل»، مثل كثيرين غيره من الناس، يستغرق في التفكير أكثر ما يستغرق أثناء فترات الصمت. وعلى الرغم من صمتِه، فقد كان الآن مُستغرقًا تمامًا في التفكير. كان كذلك رجلًا يُعتمَد عليه في الطوارئ. لقد مارَس صائغُ الوصية من الذكاءِ القانونيِّ داخلَ صدره الهادئ، وهو في عُليَّة ماتورين كاريه، وفي غضون خمس دقائق، أكثر مما مارسه وهو في غرفته؛ حيث كان متاحًا له أن يُناجي نفسه لساعاتٍ كثيرة. كل الاعتراضات المُحتمَلة على الوصية تركَّزَت أمامه في فكرةٍ واحدةٍ مختصرة. كل الأخطار عليه وعلى أصدقائه مرَّت بخاطره (إذا جاز التشبيه) مثل منظرٍ بانورامِيٍّ مُثيرٍ تمرُّ أجزاؤه تباعًا. كان، هو الآخَر، سعيدًا بهروبه من الحضرة المنفرة لضحيته الهَرِمة، ومن هواء الغرفة النتن.

لقد شحذت العقباتُ عقله. لقد ابتكر سلسلةً جديدةً من الإجراءات. ينبغي أن تحصل الكنيسةُ على ميراثها الذي تنتظره، إذا لم يكن بالإمكان إيقاف الموت عن الزَّحف.

كان المحامي يُضمِر هذا العزمَ في قلبه، وبدأ لسانُه الفصيح على أثر ذلك يتحرك.

علق السيد كوك قائلًا: «حسنٌ، حسنٌ، سيدي الطيب، إذا كنتَ غير راغبٍ في فعلها، فلن نُكرِهك.»

أشار الأب المُقدَّس إشارة، وارتجف العجوز.

استجمع ماتورين كاريه شجاعته كلها من جديد، وبكلماتٍ مُتقطعةٍ ولكن ثابتة صاح قائلًا:

«صدِّقاني أنا لن أموت؛ لن أُوصي بشيء. إنكما ستقتُلاني. اتركاني.»

ردَّ المحامي قائلًا: «اهدأ يا صديقي، سوف نترك لتُفكر في الأمر يومًا أو يومين. اهدأ، لا تنفعل.»

وبينما هو يتكلَّم ساعد البخيلَ على الاستلقاء، وبرقةٍ بالغةٍ عدَّل وضع الوسادة، ليستريح عليها رأسٌ شديد القلق.

وقال من جديد: «اهدأ.» وحوَّل عينَيه عن الأريكة الخشنة. أدرك صاحبُه الإشارةَ بسهولة.

«سوف نزورك مرةً أخرى بعد يومٍ أو يومين، يوم الخميس مثلًا، ونرى كيف حالك. أرجوك لا تنفعل.» كانت هذه آخِر كلماتٍ قيلت في هذا اللقاء.

ثم غادر الكاهنُ والمحامي المنزل، دون أن يُودِّعا صاحب المنزل. ذهبا إلى مسكن الكاهن، وهناك راحا يُناقشان ما ينبغي فعله في الخطوات القادمة والتي تليها لضمان الحصول على السبعة آلاف جنيه. سوف تظهر فورًا الخطة التي اتفقا عليها وسعَيا إلى تنفيذها.

انقضى يومان تخلَّلا الفترة بين الحدَثين، لكنهما لا يؤخذان في الاعتبار في هذه القصة. لا أحدَ من الضالعين في القضية، باستثناء السيد كوك، المحامي المُثابر المُتعدِّد البراعات، أولاهما أيَّ اهتمام. لم يذهب الطبيب مُطلقًا خلال يومي الثلاثاء والأربعاء لزيارة العجوز المسكين ماتورين كاريه ليرى إن كان محتاجًا لحبوب دواء، أو مساحيق، أو ترياق، أو غسول، أو ليرى إن كان البخيل قد حصل على النبيذ وجذور نبات المرنطة الاستوائي اللذين كان يَعُدُّهما في يوم السبت أكثر نفعًا من الدواء.

لم يذهب الأب أندروز — الذي ما إن أُخبر يومَ السبت أن ثَمَّةَ بخيلًا راقدًا على فراش الموت، حتى أسرع إلى جوار سرير كاريه — مُطلقًا لزيارة ذلك العجوز البائس يوم الثلاثاء أو الأربعاء. إن المسكين ماتورين قد تركه الطبيب والكاهن والمحامي وحيدًا في عُليته مدة يومَين؛ لكن السيد الأخير لم يكن عاطلًا عن العمل طوال هذه المدة. لقد كان، في الحقيقة، منشغلًا بعض الشيء.

في صباح يوم الثلاثاء ذهب إلى بنك أوف إنجلاند، وطلب عمل صَك، أو نموذج صكٍّ — يُسمَّى توكيلًا عامًّا — سوف يُمكِّن الرجُلَ المُحتضرَ، في حال مالَ إلى ذلك، من نقل السبعة آلاف جنيه لمُرشَّحي كنيسته، دون أن يبرَح سريره. طلب مسئولو البنك، كما علم السيد المحامي سلفًا، يومَين ليُعِدوا هذا التوكيل في نقل الملكية. وذهب بنفسه يوم الخميس وحصل على المُستند الذي كان يُريده. لقد عمل كذلك باجتهادٍ على إتمام وثيقتَين كانت خطةُ العمل الجديدة تتطلَّب أن يُجهزهما قبل أن يزور كاريه من جديد.

في يوم الخميس، بعد أن غادر المحامي المؤسسة العظيمة الواقعة في شارع ثريد نيدل، توجَّه بأقصى سرعةٍ لديه إلى منزل الكاهن في سومرز تاون.

صاح الأب أندروز بفظاظة، عند دخول تابعه: «حسنٌ، سعدتُ لرؤيتك. إنه لا يزال على قيد الحياة. لقد وضعتُ المنزل تحت المراقبة، مع أني لم أذهب لرؤيته منذ يوم الإثنين.»

«أرجو أن يسير كلُّ شيءٍ على ما يُرام. أتوقَّع أن تقول إنني قد أدَّيتُ دوري لإنجاز المهمة التي كرَّسْنا أنفسنا من أجلها، من أجل مجد وتقدُّم كنيستنا المقدسة.»

كان الأب المُقدَّس نزِقًا. الحقيقة أنه بدأ يخشى من عدم الفوز بالجائزة، ومن احتمالية انكشاف العمل القذِر.

أجاب الكاهن: «لقد أمضيتَ الكثير جدًّا من الوقت في تلك المهمة. لو افترضنا أن العجوز كان قد مات أثناء قيامك بدَورك، ما كان ليصبح حينها لدى كنيستنا المقدسة الكثير لتشكُرك عليه.»

أوضح المحامي في تهيُّبٍ أن الذنب لم يكن ذنبه، بل ذنب مسئولي البنك؛ ومضى يوضِّح له كيف أنه أحسن استثمار الوقت الذي استغرقه.

أخرج المحامي من جيبه وثيقة، كان قد أعدَّ مسودتها بنفسه، ثم كُتبت بخطٍّ جميلٍ على رَقٍّ ببيدٍ قرطاسيٍّ متخصصٍ في أعمال المحامين. التمعت عينا المحامي عندما نظر إلى هذا الجزء من عمله. لقد كانت «سند هبة». كانت وثيقةً خادعة، بموجبها كان كاريه «سيتخلَّى عن أمواله»، أو بواسطة التوكيل الرسمي سينقل السبعة آلاف جنيه في الحال من ملكيته إلى ملكية أوصيائه. لم يكن هذا السند يحمل ميزة هينة على الوصية؛ إذ كان سيوفر مبلغ سبعمائة جنيه، أو ما يقرب من ذلك، كانت الحكومة ستحصل عليه بموجب قانون ضريبة التركات في حالة الوصية؛ وإن كانت هذه الميزة ربما هي الميزة الأقل قيمةً في نظر المحامي. لقد واسَته فكرةُ أن وثيقةً مثل هذه، عندما لا تُمرر إلا ملكيةً خاصة، فإنها لا تتطلَّب تسجيلًا أو إدراجًا.

لَمَّا كانت عائلة ماتورين كاريه بالكامل تسكن بعيدًا جدًّا، ولما كانوا، بسبب جهلهم المُطبِق، بعيدين تمامًا عن احتمالية أن يتمكَّنوا من حل غموض هذه المؤامَرة الخبيثة، فقد ضمن مُدبِّرُوها، فيما يبدو حقيقةً، إفلاتًا فعليًّا من العقاب عن طريق مكيدتهم الخاصة. كل ما تبقى فعلُه هو تنفيذ سند الهبة هذا. ساعتها يمكن للواهب أن يموت حالَما يأذن الرب. لو أن أيًّا من أقرباء البخيل زار هذا البلد، أو طلب من أحد أصدقائه البحث في سجلات جمعية دكتورز كومونز، فلن يكتشفوا أيَّ وصيةٍ تحتوي على أدنى إشارةٍ مباشرةٍ أو غير مباشرة لمبلغ السبعة آلاف جنيه هذا. ألم يكن هذا أفضل من وثيقةٍ مُتاحةٍ للتفتيش والبحث وراءها من قِبل أيِّ شخص يدفعه فضولُه إلى إنفاق شلنٍ للحصول على هذا الامتياز؛ ورقة تظهر فيها الودائعُ التي بموجبها حُوِّلَتْ ملكيةُ السبعة آلاف جنيه تحويلًا ظاهريًّا، من شأنها أن تنكشف؟ كل هذه الأشياء شرحها السيد كوك للأب أندروز، الذي كافأ المحامي ساعتها بنظرته الخبيثة الدالة على الرضا.

علَّق الأب أندروز متسائلًا، لأنه، كما قال من قبل، يعلم القليل عن القانون: «إذن فلن نحتاج إلى أي وصية؟»

قال المحامي: «أوه، نعم؛ لدينا مبلغ الثلاثة آلاف جنيه المُخصَّص لعائلة كاريه. سيكون من المُستحسَن الحصول على وصيةٍ لأسبابٍ عدة.»

سأل الأب المقدس: «ومَن المذكورون في سند الهبة كأوصياء؟»

«الأشخاص أنفسُهم الذين كانوا مُنفِّذي الوصية في الوصية السابقة؛ لكنني أضفتُ فقرةً شرطيةً بموجبها، سيكون كلُّ وصيٍّ آخَر يَخلُفني بعد وفاتي، أو إذا توقَّفتُ عن القيام بدور الوصي، «إما أسقفًا أو كاهنًا من الكنيسة الكاثوليكية المقدسة».»

صاح الكاهنُ فجأةً: «جيد!»

قال المحامي: «أرجو أن تكون الوصية قد أعجبتك أيضًا!»

«نعم أعجبتني.» هكذا ردَّ الكاهن، الذي — لدهشته من السهولة التي يمكن بها، بموجب قانون الوقف الحالي، أن تُنتزع كلُّ صنوف الملكية، باستثناء أرض الحيازة المُطلقة، من أصحابها — بدأ يتحرَّق شوقًا إلى ما تبقَّى من أملاك البخيل. وأضاف: «لكنني أكاد أرى الآن أننا قد أخطأنا حين لم نأخذ الملكية كلها. إنني واثق أنه ما من جزءٍ من مدخرات العجوز سيُصان إلا ما خُصِّص لأغراضٍ دينية.» ثم، من جديد، عندما تذكَّر الكاهنُ الرفضَ القاطع الذي أبداه الرجلُ العجوز لتوقيع الوصية السابقة، انتابه فزعٌ من احتمالية أن يُبدي الرجل هذه الليلة العنادَ نفسه؛ لذا ارتأى الأب المقدس أنه ربما كان من الحكمة أيضًا الالتزام بالقسمة الأصلية، والسماحُ لأقارب البخيل بأخذ صدقةٍ من ثروته.

نظر الكاهنُ بثباتٍ في وجه مُحاميه، وسأله: كيف ستُوزع الثلاثة آلاف جنيه؟

قال المحامي: «حسنٌ، بالطريقة التي أُعدَّت تمامًا؛ لقد قُسِّم المبلغ إلى أربعة أجزاء، قيمة كل جزءٍ منها ٧٥٠ جنيهًا.» وأضاف، وهو يناوله الورقة: «إنها مسألةٌ مختصرةٌ ويسيرةٌ للغاية. لقد جعل اقتطاع السبعة آلاف جنيه الوصيةَ مُبسطة كثيرًا؛ لكنها متكاملة تمامًا. لا شيء في ظاهرها يُمكن أن يُوحي للعقل المتفحص بأننا اقتطعنا جزءًا ضخمًا من الملكية قبيل وفاة مالكها مباشرةً.»

انبهر الكاهنُ بالترتيب البارع الذي أعدَّه محاميه.

أخبرني بعضُ المحامين أنه ما كان سيصبح هناك حاجةٌ لتحرير أي وصية لو أن الغرض منها كان مجرد ضمان انتقال الثلاثة آلاف جنيه باتجاه التوريث. في المسار الطبيعي للقانون، وبموجب وثيقة إدارة للتركة، كان المبلغ سيُوزع كما تنص الوصيةُ تمامًا. كان الغرض الحقيقي للوصية، والوحيد في الواقع، أن تُسلَّمَ إدارة الثلاثة آلاف جنيه

لأوصياء مُوالين، سيقومون بدورهم، من خلال جعلهم على اتصالٍ بالمُوصَى لهم، بمنع التحقيق في استخدام، أو في الواقع، وجود مبلغ ماليٍّ آخر؛ السبعة آلاف جنيه.

لم يكن الوقت قد حان بعدُ لزيارة الرجل الحرون. لكن كل الاستعدادات قد اتُّخِذَت؛ ولذا رأى الرجلان الفاضلان اللذان أدَّيا أدوارًا أساسية فيما سأتجرأ الآن على تسميته بالمؤامرة، أنهما كانا مؤهَّلَين لقليلٍ من المتعة، وقد حظيا بها. اتخذت بقيةُ المحادثة منعطفًا مُفعمًا بالحياة، كما يحدُث عادةً على أيِّ مائدة عشاء عندما يُقدِّم المُضيفُ طعامًا وشرابًا جيدين كذاك الذي كان في مقدور الأب أندروز أن يُقدمه لأحد الضيوف.

عندما اعتقد الكاهن أن الوقت المناسب لزيارة ماتورين كاريه مرةً أخرى قد حان، كان في بيته في صحبة شخصين آخرَين؛ كان أحدهما سيدة، عُرِّف القارئُ بها من قبل، كانت تعمل مُعلمة، وكانت من قبل هذا — مثلما يمكن أن نذكر هنا أيضًا — تُكمِّل وظيفتها المزعومةَ بأعمالٍ غريبة قليلة من نوع العمل الذي يُوشك الآن على أن يُوصف. كان الآخر سيدًا، وبعبارةٍ أخرى، كان كاتبًا لدى مَصرفيٍّ مستقل، وكان ذلك المصرفيُّ آنذاك يدير عملًا في المنطقة المجاورة لسوق كوفنت جاردن، وكان رجال الدين والأرستقراطيون الكاثوليكيون عملاء مُهمين عنده، وقد عانوا معاناةً شديدةً عندما أفلس مصرفُه قبل سنواتٍ قليلة مضت.

دعا الأبُ أندروز السيدةَ والرجُلَ ليكونا الشاهدَين على هذه المكيدة الشريرة بعد أن بلغت مرحلتها الحاسمة؛ ومن ثَم كانت هذه خطوةً حصيفةً لحجب أعين المهرطقين عن رؤية ما يمكن أن يفعله الكهنة الكاثوليكيون المعاصرون، بالتائبين الذين يملكون مالًا، في الأيام أو الساعات أو الدقائق التي تسبق انطلاق الروح إلى مثواها الأخير. لقد وصف الأب أندروز هذين الشخصين وصفًا دقيقًا. إن أعين هذين الشاهدين لن تقدر على أن ترى، أو لن تشهد بالتأكيد على أي شيءٍ يشين الكنيسةَ التي يرتبطان بها بروابط مادية متينة، فضلًا عن الروابط الدينية.

أخيرًا حان الوقت المناسب. كاهن، ومحامٍ، وشاهدان، كلهم غرباء عن المُوصي، كلهم يعرف الآخر جيدًا، ثلاثةٌ منهم ليس لهم سلطانٌ على أرواحهم، لكنهم معتمدون على الرابع، انطلقوا جميعهم إلى منزل ماتورين كاريه.

لكن كاريه لم يكن تعيسًا للغاية، ولا كان واهنًا ذهنيًّا أو جسديًّا كما كان يرجو بعض الأشخاص، خلال الفترة الفاصلة بين يومَيَّ الثاني والثالث. لقد تعافى جزئيًّا، وكان في تلك الليلة أقوى قليلًا عقليًّا وعضليًّا مما كان عليه منذ أسبوعين على الأقل. يستطيع القارئ،

الذي تركتُ له مسألة الفصل في الكثير جدًّا من الأشياء، أن يُحدِّد إن كان من الممكن، بأي درجةٍ، أن يُعزى هذا إلى غياب الطبيب، أو إلى الامتناع عن الدواء، أو إلى تصبُّر الكاهن. ربما من الممكن إلى حدٍّ ما أن تُعزى الروحُ العنيدة إلى تأثير مالك المنزل البروتستانتي ذاك، الذي أفسد بتدخُّله المكيدةَ كلها. لقد كان يرافق النزيل، الذي يستأجر غرفةً في بيته، كثيرًا جدًّا أثناء الفترة التي تخطَّيتُها في سبيل اختصار قصتنا. إن هذا الرجل المُجدِّف قد أجاز أن يُوصَف سلوك الأبِ أندروز بأيِّ شيءٍ سوى الصواب، وألقى بظلال الرِّيبة على شرَف المستشار القانوني الدائم للكنيسة الكاثوليكية؛ السيد كوك. وهكذا حُرِّض ماتورين كاريه على درجةٍ من الوقاحة المارقة، أشدَّ من تلك التي بلغَها يوم الاثنين، وصمَّم على أنه لن يكون له أيُّ شأن بعد الآن بالكاهن، أو بالمحامي، أو بخُططهما. لقد أمر مالكَ المنزل بألَّا يُدخِل هؤلاء الأصدقاء الزائفين عندما يأتون لزيارته في المرة المقبلة.

عند وصول المَوكب إلى محل إقامة كاريه — يتقدَّمه الكاهن، ومن ورائه المحامي والشاهدان — فتح مالكُ المنزل المُضطلِع بحماية الباب.

قال المُضيف للجَمع، وهو شِبه فزعٍ من القوة العددية، إن لم يكن الأخلاقية: «إن السيد كاريه مريضٌ للغاية، ولا يستطيع أن يستقبلكم اليوم.»

كانت دهشة الضيوف من هذا الإعلان المفاجئ عظيمةً بالطبع. لقد اعترفت المعلمة الزائفةُ فيما بعد، بلغةٍ أمْيلَ إلى المواعظية منها إلى التزمُّت، أنها «شعرت بارتباكٍ تام»، واعترف كاتبُ المَصرفيِّ الكاثوليكي هو الآخَر بسذاجةٍ أنه بدأ يتخيَّل وجود «شيءٍ غريب».

أخذ الكاهن والمحامي يختلسان النظرات بعضهما إلى بعضٍ، وإلى مالك المنزل الذي سدَّ الممر، أو الدَّرَج، وحماه من التطفُّل. كان في التمهُّل صيانةٌ للسمعة، وفي التهوُّر مُخاطرةٌ بها. لكن الموت كان وشيكًا، وكانت الساعات المُتبقيةُ من عمر البخيل معدودة، وربما يتسبَّب التردُّد في خسارة ٧٠٠٠ جنيه إسترليني. انتصرت الصفةُ المميزةُ السائدةُ في الأب أندروز على حذره، فاتَّخذ قراره في ثانيتَين أو ثلاث. فقد كانت الجائزة، في اعتقاده، تستحقُّ المخاطرة.

أخذت عينُ الكاهن تقيس صاحب المنزل من رأسه حتى قدمه، من أجل تقدير الاحتمالات وقابلية المقاوَمة، وكوَّنَت رأيًا عنهما. أما عن الأخير، فستُتاح لي الفرصةُ لتوضيح ما دار في رأسه. وللكلام عن الأول، يكفي القولُ إنه لم يرَ ما يدعو إلى خشية وقوع «جلبة» إذا ما نُفِّذ الهجومُ بجسارةٍ واندفاع.

في أقل ممَّا استغرقه هذا الوصفُ من الوقت، ألقى الأب أندروز بنفسه إلى الأمام، صائحًا في الوقت نفسه: «أنا لا أُعامَل بهذه الطريقة.» وبضربةٍ من ذراعه أزاح العائق من طريقه.

أسرع الكاهن بصعود الدرَج، وأدار مقبض باب الغرفة، ووقف أمام البخيل المرتَجِف، الذي ظل برغم ذلك مُعارِضًا لهجومه الروحي.

بعد ذلك وبلُطفٍ دعا مالك المنزل الشاهدَين المُرتبكين والمحامي إلى الردهة؛ حيث، وبمصادفةٍ غير عادية، كان ثَمَّةَ سيدٌ آخر، صديقٌ للمُضيف، وقد أثار وجوده انتباهَ المحامي، إن لم يكن قد أثار مخاوفه.

سوف يكون كرمًا بالغًا من مُخيلة القارئ أن تتبعني إلى الطابق العلوي في إثر الكاهن.

«أرجوك دعني وشأني، أنا لا أستطيع عمل أي شيءٍ اليوم. لا أدري ما أنا مُقبلٌ عليه. ماذا تريد؟» كانت هذه هي الجُمَل التي خرجت، بالإنجليزية، من بين أسنان الرجل العجوز التي كانت تصطكُّ بعضها ببعض.

سأله الكاهن بقسوة: «أتسحَب وعدك؛ هديتك الدينية لكنيستنا المُقدَّسة، أيها البائس الحقير؟»

«لا، لا؛ لكن اترُكني؛ لتأتِ في وقتٍ آخر. لا أستطيع عملها اليوم.»

«ليس اليوم؟ غدًا سيكون جسدك في القبر، وروحك في ...»

«لا، لا؛ سأفعل، سأفعل. أين الأوراق؟» ومدَّ المُحتضَرُ التعِسُ يده وكأنه كان يريد أن يُمسك قلمًا، وبنقْل ثروته الدنيوية كلها لأحد الكهنة، تجَنَّبَ إتمامَ الجملة.

أسرع الأب أندروز بالخروج من الغرفة، وصاح من فوق الدرَج مُناديًا المحامي والشاهدَين: «اصعدوا.»

شرع الشاهدان يصعدان الدرَج في الحال. أما المحامي، الذي كان من الممكن أن يتنازل عن نصف ما ينتظره من الميراث في سبيل ضمان عدم وجود ذلك الغريب، هو وصاحب المنزل الذي يُفسِدُ بتدخُّله الخُطَط، ولكن لعلمه أن هذه الخطوة الوسيطة لإنجاز المهمة غير قابلة للتنفيذ، فقد رأى أن أفضل ما يفعله في الخطوة التالية أن يجعلهما مُراقبَين للصفقة، إن لم يكونا مُشارِكَين فيها.

كان لديه إيمانٌ عميقٌ بالدوافع المُتدنِّية للطبيعة البشرية، مثلما يؤمن بذلك جميع زملاء مهنته تقريبًا. كان من المُمكن فقط، هكذا اعتقد، أنَّ مثل هذا الإشباع لغرورِ هذين

الشخصين ربما ينتصر على إخلاصهما أو صمتهما. لم يعلم المحامي على وجه التحديد، ولا حتى بالحدس، حقيقة ما يجري في «الجزء الخلفي من الطابق الثاني» بين الكاهن والرجل السادِر في ذنبه. أما صاحبُ المنزل وصديقُه فقبِلا الدعوة.

عندما رأى الكاهنُ صاحبَ المنزل يدخل الغرفة، أصابه اضطرابٌ شديد، وزاده الارتباكُ فظاظة.

قال الكاهن: «لا أحد يُريدك هنا.»

انزعج المحامي. لقد كان يعلم أن أي سندٍ أو وصيةٍ يُوقِّعها ذلك المخلوق الآدمي الواهن، وهو على شفير هاوية الموت، ومُحاطٌ في ذلك الوقت بالغرباء، سوف تُلغى إذا ما اعترض عليها أقرباء ماتورين من الدرجة الأولى. وأصابه الرعبُ عندما تذكَّر أن تصرُّفه هو سوف يُدان بشدة من قِبَل أقطاب تلك المهنة الشريفة الموقَّرة التي كان يَحطُّ من قدْرِها، وكان يعلم أن الرأي العام سوف يستنزل اللعنات على كل المشاركين في المؤامَرة بحسب ما ارتكبوه من آثام.

قال المحامي: «دَعْه ينتظر، فَلْيبقَ الجميع؛ أرجو أن يظل هنا.» أما الكاهن، الذي هداه حدسُه إلى وجود ما يُبرِّر رغبة المحامي في بقائهما، فلم يُبدِ مزيدَ اعتراضٍ على وجودهما.

بقي مالك المنزل وصاحبه بالفعل، ليقُصَّا فيما بعد كل ما حدث.

ذهب المحامي، ليُحافظ على أبَّهة المظاهر، ولأنه لم يشك للحظةٍ في أن الأب أندروز كان قد مهَّد الطريق، ذهب إلى جوار سرير كاريه وهو يعتزم شرح الوثائق. كان الرجل العجوز، الذي كان ارتباكه أكثر من مجرد ارتباكٍ يسيرٍ بسبب دخول أُناسٍ كثيرين هكذا إلى حجرته، مُرتعبًا من مدى أهمية وجدِّية عمل «صائغ العدل» هذا. إن عقل العامِّيِّ ينظر عادةً إلى وثيقةٍ على ورق الرَّق بما يُشبه الخشية، وما كان فتحُ ورقةٍ تتضمَّن أمرًا بإعدام ماتورين كاريه نفسِه يستطيع أن يُفقده رباطةَ جأشِهِ أكثر مما فعل صوتُ الكرمشة الصادر من سنَد الهبة الديني هذا.

أخذَت عينُه الشاردة تجول سريعًا بين المحامي والكاهن، وتتفحَّص قدْر استطاعتها الغرباءَ الآخرين، الذين جاءوا، كما اعتقد، في تلك اللحظة ليسلُبوه مُدخراته البغيضة. وظل مرةً بعد مرةٍ، كلما نظر إلى الكاهن، يرتجف، والعرَقُ يرشح بغزارةٍ من بشرته الشاحبة. وقال: «اتركوا الأوراق إلى يومٍ آخر.»

سرى بين الضيوف اهتياجٌ بسبب هذا التعبير الدال على الاستياء من الأمر، والذي نُطق في حضرة الأب المقدس. ولاحظ المحامي ذلك.

قال السيد كوك: «حسنٌ، سوف نتركها. أستطيع، إذا أحببتَ، أن أحدِّد موعدًا آخر.»

كان المحامي على وشك أن يطوي الأوراق ويغادر، لكن الكاهن أمسك ذراعه وأمره أن ينتظر.

تقدَّم الكاهنُ إلى جوار السرير البالي، وخاطب العجوز المُحتضر. ما من مخلوقٍ يعرف ما الذي قاله؛ لأنه اختار لكلامه لغةً لا أحد من الحاضرين — ولا حتى المحامي — يستطيع أن يفهمها، سوى كاريه. ببطءٍ خاطب الأبُ أندروز البخيلَ المُحتضَر بالفرنسية. كانت كل كلمةٍ تُسرِّع نبْضَ العجوز ماتورين، وتجعل أسنانه تصطك، وتُعيد العَرَق الرطب ليرشح من بشرته من جديد.

لم يستمر الحديثُ الفرنسي، أيًّا كانت ماهيته، طويلًا بعدما صاح البائس المُحتضر قائلًا: «نعم، نعم، سأوقِّعها؛ لا تتركوني.»

بعد ذلك، حرص السيد كوك على توضيح مسألةٍ أو مسألتين، رأى أنه ربما يُذهِب تحرُّجَ الشاهدَين المُهرطقَين. لقد أوضح لكاريه السخرية القانونية المُتمثلة في أن سند الهبة هذا لن يحرِمه من أرباحه من مبلغ السبعة آلاف جنيه خاصته ما دام بقي على قيد الحياة؛ وأوضح له أن السند يضمن له حقَّ انتفاع مدى الحياة، وأنه برغم أن الأوصياء سوف يكون لهم ما يُسمِّيه المحامون «الحق العيني» في ماله، فسيكونون مُلزَمين بإعطائه الربحَ من ذلك المال ما دام أنه على قيد الحياة؛ كما أوضح له أن السند يحتوي كذلك على حقِّ الإبطال، ومن ثَم فإن باستطاعته في أي وقتٍ أثناء حياته، وبموجب سندٍ قانونيٍّ آخر، أن يطلُب من الأوصياء إلغاء هذا السند، وإعادة ماله إليه. غير أن كل هذه المعلومات الحكيمة المُهمة كانت غامضةً على التائب، ولم يفهمها مالك المنزل ولا صاحبه.

الوصية كذلك، شُرِحت بالقدر نفسه من التفصيل. رأى العجوزُ ماتورين صاحبَ المنزل أمامه، ولما تذكَّر أفضالًا عرَضيةً نالها من ذلك الشخص، طلب أن يُعطى كلَّ شيءٍ في المنزل من مالٍ وسلع عند وفاته. لم يعترض الكاهن ولا المحامي على هذا؛ لأنه وضع صاحبَ المنزل تحت تعهُّدٍ بألَّا يكشف الأمر.

لو أُلغيت الوصية، فإن هذا الإرث، الذي يساوي حوالي ١٠٠ جنيه إسترليني، سيضيع عليه مثل الواشي. اقترح الأب أندروز على التائب أنَّ المحامي هو الآخَر ينبغي أن يرث شيئًا. ووافق التعِس العجوز المسكين على هذا. وتحدد لذلك مبلغ خمسين جنيهًا. شرع المحامي يقول، كما هو العُرف، إن هذا لم يكن ضروريًّا، لكن الكاهن أصرَّ، ودُوِّن المبلغ.

وُقِّعَت الوثائق العديدة وشُهِد عليها رسميًّا، وانسحبَ أبطالُ هذه القصة الحديثة الرائعة، في أقرب وقتٍ أمكنهم وهم يتظاهرون بالذَّوق والتهذُّب، ليُهنِّئوا أنفسهم بالنجاح الحاسم لمكيدتهم.

لم يكن توقيع السيد كاريه على هذه الوثائق بالمهمة الهينة؛ لقد أضعفه المرضُ أيما إضعاف، وأنهكه الكلام الذي قاله الأب المقدَّس بالفرنسية أيما إنهاك، لدرجةِ أن مُساعدته صارت ضرورية. فرفعَه الكاهن إلى أعلى وهو في فراشه، ووضع القلم في يده، وأسند ظهره بينما أخذ هو بوهنٍ ينقش على كلِّ واحدٍ من المستندات الثلاثة — سند الهبة، والتوكيل الرسمي، والوصية — اسمَ «ماتورين كاريه».

لكن الصفقة لم تكن عندئذٍ قد اكتملت تمامًا. لنفترض أن ماتورين كاريه مات قبل أن ينتقل مبلغ السبعة آلاف جنيه إسترليني من حيازته إلى حيازة الأوصياء. لو تصادف أن مات وهو يملك ما يُسمِّيه المحامون «الحق العيني» في هذا المبلغ، فسينتقل إلى أقرب واحدٍ من أقربائه. سيكون ثَمَّةَ سباقٌ عنيفٌ بين الموت، ظهير أقرب أقرباء كاريه، والسيد جون أثناسيوس كوك؛ خادم الكنيسة الكاثوليكية الإنجليزية الذي يؤدِّي مختلف المهام القانونية.

على الرغم من كل شيء، لم يكن اختيارُ الأبِ أندروز المساءَ للمشاورات مع ماتورين من حُسن الترتيب، مع أن اختياره قد نبع من تخطيطٍ داهية. لقد حال دون عمل أيِّ شيءٍ في اليوم نفسه يُحتمل أن يكون ضروريًّا لإنفاذِ ما اتخذه البخيل من أفعالٍ خيرية. إن يومًا واحدًا، أو ساعة واحدةً أو — كما أثبتت النتائج — حتى بضع دقائق، كان من شأنها أن تحدد إن كانت الكنيسة الكاثوليكية ستأخذ السبعة آلاف جنيه، أم أن المال سينتقل قانونًا إلى أقرباء المتوفَّى.

لقد فعل السيد كوك كل ما بوسعه، «من أجل تنفيذ الأهداف الخيرية للموصِي»، على حدِّ تعبيره. ما من شيءٍ كان يمكن عملُه في بنك أوف إنجلاند يوم الخميس؛ الذي يوافق اليوم الثالث في قصتي. لا شيءَ عمليًّا كان من الممكن إنجازُه قبل يوم السبت؛ يومي الرابع.

في غضون ذلك، أجرى المحامي جميع الاستعدادات الضرورية. لم يكن من الممكن لشيءٍ أن يتفوَّق على يقظة هذا السيد المُثقَّف؛ ففي وقتٍ مُبكرٍ — تحديدًا الساعة العاشرة — من صباح اليوم التالي (يوم الجمعة)، ذهب في زيارةٍ، في عربة أجرةٍ، إلى البنك، برفقة سمسارٍ من سماسرة البورصة لا نزاع في استقامة مُعتقده، وتوسَّل إلى الموظفين ألَّا يُهدروا وقتًا في

تنفيذ نقل الملكية. إنَّ موظفي الحكومة والشركة الذين يقومون بهذا العمل للولاية بُلداءُ بعض الشيء، أو مضبوطون على الحركة البطيئة. لكنَّ دفعَ أجرٍ إضافيٍّ يُنشطهم قليلًا. أما المحامي، فلِوَعيه التام بقيمة الوقت في هذه المرحلة، دفع «أموال الاستعجال» وعاد إلى بيته. لم يكن ثَمَّةَ بديل. لم يكن بإمكانه إلا أن ينتظر يومًا آخر، ويرجو أن يظلَّ العجوز خلال الفترة الفاصلة في صحةٍ جيدةٍ بما يكفي لئلا يموت، وبذلك يُلغي الباعثَ على المزيد من الجهد والمكر.

أثناء الفترة نفسها، كان كاريه يهوي سريعًا إلى هلاكه، ولم يُفكر الطبيب ولا الكاهن في مساعدته أو مواساته. لم يهتم أيٌّ من هذين السيدين بأن يُرسل له دواء، ولا بأن يُخفِّف عنه بصلاة. يبدو هذا خطأً فادحًا. إنَّ دواءً مُقوِّيًا، أو مُسكِّنًا، وبعض الطعام الطيب المُغَذِّي كان من الممكن أن يُطيلا حياته، إلى أن يكون المحامي، من دون أيِّ شك، قد أتمَّ عمله. وعجَّلت المحنة التي حدثت في اليوم الثالث من وقوع الأزمة. لقد أصبح عقله الآن أشبه بحُطامٍ تام. فكان أحيانًا يُقرِّر أن يرسل في طلب الكاهن ويطلب منه أن تُسلَّم له المُستندات، أو أن تُلغى أمام عينَيه؛ لكنه كان بعد ذلك مباشَرةً يتوب عن الفكرة، ويستمدُّ إحساسًا هزيلًا بالابتهاج من اعتقادٍ جزئي بأنه قد استرضى الربَّ بالإذعان لحِيَل الكاهن. على هذا النحو اجتاز ماتورين كاريه يوم الجمعة، لكنه كان يزداد اقترابًا ساعةً بعد الأخرى من نهايته. واقترب يوم السبت.

شهد يوم السبت، السادس من شهر مارس، عام ١٨٤٧، اكتمال الحيلة الكهنوتية.

استيقظ المحامي من نومه القلِق في ساعةٍ مبكرة؛ ولم يكن قد نام إلَّا القليل في تلك الليلة. لم ينل المحامي ما يناله أيُّ كاهنٍ من التمرين الطويل منذ كان شابًّا غيرَ ناضجٍ وحتى تمام سنِّ الرجولة كي يحجب تَعاطُفَه الفطري، ويُعتم على بصيرته أو يُشوِّهها، ويمنع نفسه من رؤية هذا العمل البغيض في مظهره ووضعه الحقيقيَّين. لو لم يكن بالفعل قد تمادى في فعله إلى حدٍّ بعيد، لَتراجع عنه؛ لكنه كان يظن أن هذا قد صار مُستحيلًا الآن. فبِصرف النظر عن العداء الذي كان سيجنيه من أولياء نعمته لو فعل هذا، والفقر الذي سينجم عن ذلك والذي سيتحتَّم عليه أن يواجهه، فقد رأى أنَّ اتخاذ مثل هذا المسلك سوف يضعه في خطرٍ من افتضاح أمره. كان الأمان، أو احتمالية تفادي اكتشاف أمره، موجودَين الآن، من دون ريبٍ، في الاتجاه الذي يُتوقَّع منه أن يسلكه. لم يكن ثَمَّةَ مسارٌ سالكٌ، فعليًّا، غير ذلك الذي كان يسلكه.

بحلول العاشرة من صباح ذلك اليوم كان في مكتب أحد سماسرة البورصة، في أحد الشوارع الضيقة في المدينة. لم يكن ذلك السيد قد وصل بعد، ولم يكن يُتوقَّع أن يصل، من بيته المُبهج الواقع في ضاحية المدينة، قبل ساعةٍ أخرى على الأقل.

ها هو، من جديدٍ، تأخير يدعو إلى الغيظ. كانت الحياة تنحسر سريعًا عن ذلك العجوز البائس في سومرز تاون، وفي خضم نفاد صبره، أطلع المحامي الكاتبَ الجالس على أحد المكاتب على أكثر ممَّا ينبغي له أن يُطلِعه عليه من الأسرار؛ لدرجةِ أنه أوضح له أن «الأهداف الخيرية للمُوصِي» قد تبطُل إذا لم يصل السمسار قريبًا.

أخيرًا جاءت عربةُ سمسار البورصة حاملةً ذلك السيدَ المُهم إلى باب مكتبه. كان السيد كوك واقفًا على العتبة، فرآه وهو قادم. بينما الرجل يُطلُّ من العربة أقحمه المحامي فيها مرةً أخرى، وركبها هو الآخر.

قال المحامي للسائق، الذي كان يعرف الطريق جيدًا جدًّا: «إلى مكتب التحويل المصرفي.»

قُدِّمت للسمسار بعضُ الكلمات لإيضاح الأمر، وقبِلها الرجلُ بوصفها اعتذارًا عن هذا الاستعجال غير اللائق.

في ظرف دقيقتَين أو ثلاثٍ على الأكثر وصلت العربة إلى البنك. لا أستطيع أن أُحدِّد كم استغرق إتمام عملية نقل الملكية؛ لكن في الساعة الواحدة والنصف كان ذلك الإجراء المُهم حقيقةً واقعة.

ارتسم قلق شديد على ملامح المحامي عند خروجه من بنك أوف إنجلاند. تُرى هل كان ماتورين كاريه لا يزال حيًّا؟

سؤالٌ جوهري! هل سبق الموتُ واعترض سبيل الكاهن والمحامي؟ ماذا لو أخفقت المكيدةُ كلها في المرحلة الأخيرة؟ الفضيحةُ والإفلاس له، والعار والأذى للكنيسة. لقد عاقب الضميرُ السيدَ كوك عقابًا مُوجعًا ذلك اليوم.

عندما توقَّف ليُفكر في الأمر لحظةً، مرَّت به عربةُ أجرةٍ فارغة. استوقفها المحامي، وطلب من السائق أن يتَّجه بأسرع ما يُمكنه إلى شارعٍ معينٍ في سومرز تاون. ولمَّا كان الحصان من الخيول الجيدة، فقد جرى على الأرض بسرعةٍ تسُرُّ مسافرًا يسافر بالسكة الحديدية، لكنها سرعة عدَّها السيد كوك برغم ذلك شديدة البطء.

بعد مدةٍ معقولةٍ وصلت العربةُ إلى مسكن البخيل.

ترجَّل المحامي من العربة، وطرَق الباب. فتح له مالكُ المنزل شخصيًّا.

«لقد مات يا سيدي.» كان هذا هو الرد على سؤالٍ لم يُنطق.

«كم مرَّ على موته؟»

«ساعةٌ تقريبًا يا سيدي.»

«هل أنت متأكد؟ لا يمكن أن يكون مرَّ وقتٌ طويلٌ جدًّا هكذا.»

«ربما ليس تمامًا. ربما مرَّ أكثر من هذا، أو أقل منه.»

يا لشدة التشويق! من الذي يمكنه أن يشكَّ في أن المحامي أحسَّ بقليلٍ من الإثارة. يا لسوء حظ الكنيسة؛ إذ لم يعِشِ الرجل العجوز لساعةٍ أخرى مثلًا! لربما تمكَّن الشهود عندئذٍ من رؤيته وهو على قيد الحياة؛ لِنَقُل لنصفِ ساعةٍ تقريبًا أو نحو ذلك «بعد» الانتهاء من نقل ملكية ماله. يا لسوء حظِّ أقارب البخيل المُعوزين الذين في فرنسا أولئك عندما لم يمُت قبل هذا بساعة، بحيث يكون من الواضح أنه كان جثةً عندما تمَّ نقل الملكية! ساعة واحدة أكثر أو أقل، كتلك الساعات التي كان يتألف منها ما تبقى من عمره، لم يكن من الممكن أن تكون ذات أهمية للبخيل المنفي الوحيد.

بُذلت جهودٌ عجيبةٌ فيما بعد لإثبات أن كاريه قد لفظ أنفاسه الأخيرة بالفعل قبل إتمام نقل ملكية المال. كما بُذلت جهودٌ مماثلةٌ لإثبات أنه ظلَّ على قيد الحياة أثناء تلك العملية، التي لم يكن، بالتأكيد، يدري بها. إن أفضل الأدلة في ظني قد أسفر عن إثبات أن النفَس الأخير، في الحقيقة، قد غادر جسدَه الواهنَ، وأن نبضَه توقَّف عن الخفقان، بحسب أقرب تقديرٍ ممكن، قبل عشر دقائق تقريبًا من إتمام نقل الملكية.

انتهى خيطُ قصتي الأساسي، لكن ثَمَّةَ بضعة أحداث تستحق بذل الجهد لإضافتها كتَتِمَّة لهذه القصة الغريبة والحقيقيَّة. لم يرضَ مالكُ المنزل وصديقُه عن الأحداث التي وصفتُها؛ لذلك، وبعد أسبوعٍ أو أسبوعين، كتب الأولُ رسالةً إلى أحد أقارب المُتوفَّى، وقصَّ له القصة قدْر استطاعته. جمَّع أفرادُ الأسرة مواردهم الماليةَ الضئيلة، وفوَّضوا واحدًا من طائفتهم — أحد أبناء أخت ماتورين كاريه، يُدعى فرانسوا ميتاريه، كان قد أصبح معروفًا في السجلات القانونية لهذا البلد — ليزور إنجلترا ويُحقق في الأمر. مسكينٌ هذا الرجل، لم يكن كفؤًا للمهمة. عندما زار ميتاريه المحاميَ، الذي حصل على عنوانه من مالك المنزل، أكَّد له ذلك السيد، على طريقة اليسوعيين، على الحقيقة البحتة التي تقول — بافتراض أن كاريه قد تُوفِّي قبل إتمام نقل الملكية — إنه مات ولا يملك سوى ٣٠٠٠ جنيه. كثيرون من الدُّهاة في لندن أخبروا ميتاريه كذلك أنه حتى لو كان من الممكن إبطالُ سند الهبة، فليس هو

مَن يستطيع تحقيقَ ذلك؛ لأنه فقير، وجهاز إدارة محاكم العدالة عندنا لا يمكن أن يُوظَّف لصالح أحدٍ، إذا كان ذلك ممكنًا، إلا على أيدي الأغنياء. رجع الفرنسي الأُمِّيُّ إلى فرنسا. لكن الأسرة ظلَّت رافضةً للتخلِّي عن الأمل في استعادة حقِّها. ظل ميتاريه يُعاود المجيء إلى هنا، بما لا يقل عن ستِّ مرَّات، إلى أن تولَّى القضية أخيرًا محامٍ بارز، وأقام دعوى في محكمة كورت أوف تشانسيري لإبطال السند تأسيسًا على عدة أسباب، لكن كان السببُ الأساسي هو الاحتيال. لقد وُظِّفتُ للتحقيق في القضية، ولم أستغرق وقتًا طويلًا في حيازة ما يكفي من الحقائق لإثبات اعتقادٍ — في عقلي أنا، وعقل مُستخدِميَّ المباشرين — بأن لعبةً قذرةً قد مُورِست على الرجل المُحتضَر أو أقاربه.

غير أن الفضل الأساسي في هذا الاكتشاف يعود إلى واحدٍ من النبلاء المرموقين، كان قد قدَّم خدمةً نبيلةً لهذا البلد، وهو اللورد بروم، الذي يمتلك قصرًا في جنوب فرنسا. لقد تعرفَتْ عليه أسرةُ كاريه. وسمع اللورد بروم قصتهم، وأدرك الاحتيال، وعرف كيف يمكن التغلُّب عليه. لقد أقنع هذا المحامي، الذي استعان بي، بتولِّي القضية، وأنه ما من شكٍّ في أن المال كله كان من الممكن أن يُستردَّ لو أن أفراد أسرة المتوفَّى لم يستسلموا. لكنهم ذاقوا شيئًا، ربما، خلافَ ما توقَّعوا أن يلحق بهم من أيدي جماعة الكهنة وأيدي العامة في فرنسا. كان فرانسوا ميتاريه يعمل ناسجًا على نوْلٍ يدوي في مقاطعة لا ماين، بالقُرب من منطقة بريتاني. كانت لديه عائلةٌ كبيرة، وقد عرَّضه الدور الذي أدَّاه في هذا الأمر لاضطهادٍ مرير؛ ففُصِل اثنان من أبنائه من المدرسة العامة. كان الناس يُشيرون إليه في الشوارع، وكانت زوجته تُسَبُّ على رءوس الأشهاد. كان يُطلق عليه «رجل سيئ»، وصارت الحياةُ لا تُطاق بالمرة لدرجة أنه أُقصي في النهاية من فرنسا، واضطر للبحث عن مأوًى ومواردِ رزقٍ في هذا البلد. بهذه الطريقة أُقنِع أفرادُ أسرة البخيل بقبول تسويةٍ بشأن الدعوى. كانت التسوية تتمثَّل في حصول أفراد الأسرة على مبلغٍ من المال أكثر من سابقه؛ ٤٥٠٠ جنيه إسترليني، على أن يُسمح للكاهن وفريقه بالاحتفاظ بالبقية.

فيما يتعلق بالمحامي ربما يكون من الجيد القول إن العدالة المثالية قد أدركَته؛ إن اللَّوم الذي لحِقه من أعضاء جمعية المحامين، والذين اكتشفوا حقيقة انحرافاته من خلال هذه الأحداث، واستنكار السيد بيثل (رئيس مجلس اللوردات والرئيس الأعلى للقضاء) في جلسةٍ علنيةٍ أثناء التحقيق، واللعنات التي حلَّت عليه من العامة؛ كل هذا ألزمه فراش المرض، وعجَّل بموته، إن لم يكن تسبَّب فيه. أما بشأن الكاهن، فربما يكون من الجيد

أيضًا توضيح أنه اضطر أن يتحمَّل لمدةٍ من الوقت في سومرز تاون معاملةً شبيهةً تمامًا بالتي كابدَها فرانسوا ميتاريه في مقاطعة لا ماين؛ فكان الناس يُشيرون إليه في الشوارع، ويتكلمون عنه بطريقةٍ لا علاقة لها بالمدح أو الأدب. كان العامة من سكان هذه المنطقة المُجاهرة بمشاعرها ينظرون إليه على أنه «رجل سيئ» تمامًا، وعندما كانوا يقولون له هذا، كما كانوا يفعلون في أحوالٍ كثيرة، كانوا يُضيفون إلى رأيهم أوصافًا لا تصلح للنشر في هذه الصفحات. كانت النتيجة أنْ رأى رؤساؤه الكنسيون أن من المُستحسَن أن يُنقل إلى موقعٍ آخر؛ موقعٍ لا يكون فيه حماسُه للكنيسة قد اكتسب هذه السمعة السيئة. أتى المسكين فرانسوا ميتاريه بزوجته وأولاده جميعًا إلى لندن، وبدأ يعمل إسكافيًّا، وعن طريق العمل الشريف في هذه الأرض الحرة السعيدة أصبح قادرًا على إعالتهم بصورةٍ كريمة.

الفصل الثاني

مشكلات «فتاة مثالية» وهروبها

«معذرةً يا سيدتي، لكن أعتقد أنكِ فقدتِ شيئًا.»

«فقدتُ شيئًا يا سيدي! يا إلهي! ماذا تقصد؟»

«أما فقدتِ كيسَ نقودك؟»

«يا إلهي! نعم يا سيدي؛ لم أفقده على الإطلاق. أعلم أنه كان في يدي منذ لحظة.»

«هلَّا تكرَّمتِ بتحسُّس جيبك فقط!»

فعلت السيدة ما طُلب منها، ثم طرحت أهداب ثوبها جانبًا، وألقت نظرةً على الأرض.

«ليس موجودًا يا سيدتي؛ أنا أعلم أين هو؛ أرجو أن تتفضلي بالخروج من الغرفة في الحال، قبل بدء الأغنية التالية. سوف أوضح لكِ كل شيء عن الأمر.»

كانت السيدة مُرتبكةً بدرجةٍ كبيرةٍ جدًّا منعتْها من الرد.

قال السيد: «لقد سُرق كيس نقودك يا سيدتي.»

استعادت السيدةُ قُدرتها على الكلام، وسألت: «من عساه يكون فعل هذا؟»

«الفتاة التي كانت تجلس إلى جوارك منذ لحظات؛ لكن أرجو ألَّا نتكلَّم عن الأمر هنا ونتسبَّب في فوضى. إذا تكرمتِ بالخروج من الغرفة، فسأخبركِ بكل شيءٍ عن الأمر.»

«يا إلهي! هذا مُستحيل يا سيدي، لقد كانت فتاةً لطيفةً للغاية؛ فتاة مثالية يا سيدي.»

بقليلٍ من التوكيدِ، ولكنه لا يتنافى مع أرقِّ درجاتِ التهذيب، قال السيد عندئذٍ: «لا بُدَّ لي من أن أطلب منكِ أن تتبعيني يا سيدتي.» وانسلَّ من بين سِرب السيدات دون أن يلاحظه أحدٌ تقريبًا، وذلك عندما تقدَّمَت مُغنيةٌ أوبرالية من مؤخِّرة الفرقة الموسيقية إلى مُقدمتها، وأَعْيُنُ الجميع مُعلَّقةٌ عليها.

تقدَّمت السيدةُ، مترددةً ومُرتجفةً — وكأنما كانت ذاهبةً لتَلْقى حُكمًا على جريمةٍ اقترفتها — وتبعَت الرجل الذي كان يستجوبها.

وقعتْ هذه المحادثةُ ذات صباحٍ جميلٍ من أحد أيام شهر أغسطس، سنة ١٨٥٧، في مكان التسلية الشهير ذاك المُخصص بحُكم القانون، أو الاستعمال، أو العُرف، لسكَّان العاصمة الذين يربو عددُهم على عشرة آلاف فرد؛ وهو مبنى «هانوفر سكوير رومز» المُخصَّص للحفلات الموسيقية.

جمهورٌ من المُستمعين مُختارٌ على نحوٍ مُميَّز، لكنه كان جمهورًا كبيرًا رغم ذلك، اجتمع بناء على اختيار مدام توبير ونشرة برنامجها المُسهبة التي وزَّعَتها بين زبائنها الأرستقراطيين من الرجال والنساء. كان الضيوف (باستثناء شخصين أو ثلاثة) يتألفون من أجمل وأرقِّ وأرقى سيدات البلد، مع نثارٍ مُتفرقٍ من صفوة الشباب، الذين يمكن الوثوق في وجود مُمتلكات لديهم أو انتظارهم إرثًا، ولا شكَّ في حصولهم على دروع النبالة، ولا في أصالة أجدادهم.

كان ثَمَّةَ شخصٌ وسيمٌ يقف بعيدًا عن المجموعة، أو ينسلُّ داخلًا إليها وخارجًا منها. كان في الثلاثين من العمر تقريبًا. كان واضحًا أن سنَّهُ أكبر من هذا نوعًا ما، لكن كان من الممكن الظن أنه في سنٍّ أقل قليلًا من الثلاثين. كان نحيلًا وضعيف البِنية بعضَ الشيء، وكان له وجهٌ شاحبٌ، وعينان رماديتان، وشعرٌ لا يُغطي جبهته وليس مُنحسرًا عنها، ورموشٌ، وحاجبان، وسبلتان، ولحيةٌ ذات شعيراتٍ دقيقة. نستطيع أن نقول، حفاظًا على الوقت، ولكي يكون كلامُنا مفهومًا، إنها ربما تُعدُّ من بين النجاحات العظيمة لصالون حلاقة «تروفيت». كان ملبسه كاملًا بلا أي عيب. لقد بلغت رابطة العنق البيضاءُ التي يرتديها المِعيارَ المثاليَّ الذي وضعه بروميل للَّون والتناسُق. كانت الصدرية ذات ذوقٍ رفيع للغاية، لدرجة أن أحد السياسيين في جماعة «يونج إنجلاند» السياسية سأل مُرتديها ذات مرةٍ عن اسم خيَّاطه. لا بدَّ أن المعطف والبنطلون كانا من إبداع محل «ستالتز آند بكماستر». وذلك الحذاء الجلدي ذو العلامة التجارية المميزة، والنعلين الدقيقَين جدًّا، كان من دون شكٍّ من أفضل الخامات والصنعة لدى محل «ميدوين».

لقد شُوهد هذا المُتأنِّقُ، أو ربما يكون قد شُوهد، قبل أن يُخاطب صديقتنا السيدة تندرهارت مباشرةً، واقفًا في كسلٍ ظاهرٍ، في هيئة تُشبه هيئة اللورد داندريري، قُرب باب قاعة الحفل الموسيقي — كانت أصابعه المُستدقَّةُ الأطراف مكسوةً بالقفازات البيضاء المصنوعة من جلد الماعز الصغير الأكثر أناقةً ونعومةً على الإطلاق — يعبث ببطءٍ في قبعته المُتغضِّنة.

مَن عساه يكون؟ لقد كانت الطبقة التي ينتمي إليها، والعمل، أو المهنة، أو الحرفة التي يُمارسها، أكثر ظهورًا من مجرد أن ينمَّ عنها شيء. لقد كان صديقًا لي، وهو الذي سمعتُ منه تفاصيل هذه القضية الصغيرة المثيرة. يمكنني أيضًا أن أُخبر القارئ في الحال أنه كان ضابطًا من ضباط البوليس السري. كان اسمُه سليمي — المُفتش سليمي — لكنه كان عادةً ما يُدعى «رجل السيدات»؛ فقد كانت المهمة الخاصة التي حدَّدها له رؤساؤه الكبار في شرطة سكوتلاند يارد، بمنطقة وايتهول، أن يقتفيَ ويراقب ويقبض على السارقاتِ الأنيقات من الجنس الناعم، اللواتي يُمارسن مِهنتهنَّ في مُحيط المنطقة المُحيطة بكنيسة سانت جيمس أو بالقُرب منها.

وهكذا، بينما المُفتش سليمي يعبث — متظاهرًا بالغفلة — في قبعته المطوية، كانت عينه الرماديةُ قد مرَّت سريعًا على المقاعد التي اكتظَّت بها قاعة الحفل الموسيقي، ثم حطَّت على قلنسوة الشابةِ اللطيفةِ الجالسة بجوار السيدة تندرهارت. لقد كان خبيرًا. شيءٌ ما ربما لمْ تكن مدام ديفي لتُلاحِظه، وشيءٌ ما لمْ يكن هو ليتمكن من تفسيره، أَخبرَه أنَّ وجود هذه الشابة المثالية في الحفل الموسيقي الذي أقامته مدام توير كان سيضرُّ بقاعدة العمل الأساسية لنصير الإصلاح الحكومي. لم تكن مِثالًا للمرأة المناسبة في المكان المناسب، أو لإفراغ أفكار المُفتش سليمي في القالب اللغوي لرجلِ شرطة أحسَّ إحساسًا قاطعًا أنها كانت تنتوي سوءًا في ذلك الصباح الجميل.

تحت تأثير اقتناعه هذا، وضعَ الشابة المثالية تحت الفحص الدقيق، وسرعان ما ثبتَت شكوكه عندما لاحظ حدَثًا أدَّى به إلى اتخاذ إجراءاتٍ لم تكن مُرضية تمامًا للفتاةِ التي كان يُراقبها. ربما في شيءٍ من الطيش، غادرتِ الفتاةُ قاعة الحفل الموسيقي بعد بضع دقائق من وقوع هذا الحدث، وأثناء محاولتها مُغادرةَ المبنى قبض عليها شُرطيَّان قويَّان. بعد إنجاز هذا، عاد المُفتش سليمي إلى مهمته في المراقبة. في تلك اللحظة طوَّق بياتي عينَي وأُذُنَي أسيرةِ الجمع برابطة عنقه. وأثناء رجوعه، تقدم رجلُ السيدات نحو السيدة تندرهارت، وجرَتِ المحادثةُ الصغيرةُ التي أشرْنا إليها.

قيل للسيدة التي فقدت كيس نقودها إنَّ عليها أن تمضي مع صديقي المفتش إلى مَخفر شرطةٍ قريب. فعلت السيدةُ ذلك على كُرهٍ منها، مؤكدةً أنه لا بدَّ أن ثَمَّةَ خطأً ما، وأنه لا يمكن أن تكون الفتاةُ سارقة؛ وأنها — أعني السيدة تندرهارت — بكل تأكيدٍ لن تُقاضيها؛ وقالت إنها أُمٌّ، ولديها مشاعر أُم؛ وإن السارقة المزعومة كانت في مثل سنِّ

إحدى بناتها الحبيبات تمامًا، والتي، لأنها كانت أكثر طيبةً من أن تعيش في هذا العالم، انتقلت إلى عالمٍ أفضل، منذ ما لا يزيد عن سنةٍ ونصف. في مخفر الشرطة أخذت السيدةُ صاحبةُ الرُّوح النبيلة تُردِّد اعتقادها وقرارها كثيرًا على نحوٍ مُضجر. لقد عثرت مسئولة تفتيش النساء على كيس نقود مع المجرمة المثيرة للاهتمام. لم يكن من الممكن إنكار هويته، وقد استنكفت السيدة تندرهارت عن أن تكذب وتُنكر أنه كيسها.

بدَّدت غرابةُ محتويات الكيس، أو تفاهتها النسبيةُ، أيَّ ذرةِ شكٍّ كان من الممكن أن تستفيد منها طِيبةُ مالكتها الحقيقية لتهرب بها من محنة المُقاضاة. فلم تُخرج المتهمة التعيسةُ الحظ من محفظة السيدة سوى بضعة شلناتٍ وثلاث حبات نعناع.

سألت السيدةُ تندرهارت: «أتظنون أنني، وأنا أمٌّ مسيحيةٌ، سوف أنفي امرأةً شابةً من أجل مثل هذا الشيء التافه؟» ولَّما لم ترُد السلطات على سؤالها، أجابت هي على استجوابها بالنفي القاطع.

قيل لها إن عليها أن تُوقِّع على لائحة الاتهام، وفعلتْ هذا وهي لا تزال تؤكد أنه ما من قاضٍ عنده رحمةٌ سيُجبرها أن تكون سببًا في عارٍ ربما يكسر قلبَ أمٍّ أو أب، أو يُلطخ طموح العديد من الإخوة، أو يُفسد آمال ما يماثل عددهم من الأخوات. تركت السيدة تندرهارت المَخفر وهي تُعلن للمرة الأخيرة وبنبرةٍ ملؤها الحزنُ أنها لن تُقاضي الفتاة؛ وأنه ما من قوةٍ على وجه الأرض ستُجبرها على فعل ذلك.

بعد ظُهر ذلك اليوم ذهبت السيدة تندرهارت إلى مُحاميها؛ المؤسسة البارزة المملوكة لكلٍّ من تومليسون، وكيوت، وتيب، ووورم، وتومليسون. لم تستشِرهم السيدة تندرهارت، وإنما وجَّهت لهم تعليماتها. ولم يعرضوا مشورتهم، وإنما عملوا بمُقتضى تعليماتها. لم يكونوا يدَّعون أنهم يتولَّون «قضايا جنائية». وعندما كان أيُّ عميل مرموق يَعمد إلى إجبارهم، إذا جاز التعبير، على إقامة دعوى، كانوا يشرعون في عملهم متأخرًا، ويعملونه من دون براعة. لذلك لم يُفسِد حسَّهم بالالتزام الأخلاقي أيُّ تطلُّعٍ إلى نفقات الدعوى في هذا الموقف. كان السيد تومليسون الأكبر، والسيد تيب حاضرَين في المقابلة مع عميلتهما، وأثنَيا على عطفها وكرم أخلاقها. لقد أكَّدا لها أن تعليماتها سوف تُنفَّذ حرفيًّا، إذا أمكن، وأنهما يعتقدان أن القاضي لن يُجبرها على رفع دعوى رغمًا عنها. كان يجدُر بها ألا تمثُل أمام المحكمة الشرطية، وإنما تفوضهما كي يُوجِّها أحد المحامين العالِمين بالقانون بالحضور بالنيابة عنها.

في اليوم التالي، أُحضرت «الفتاةُ المثالية» للمثول أمام السيد سلينجيم، وهو قاضي صلحٍ مُعين يقِظ، واتُّهمَت بسرقة كيس نقودٍ يحتوي على ثمانية شلناتٍ وثلاث حبات نعناعٍ من جيب السيدة تندرهارت.

أُمر السيد تورتشواس دودج، المحامي العام لِلُصوص لندن، أن يتولَّى، بالنيابة عن المتهمة، مهمةَ إرهابِ المُدَّعية، والإكثارِ من الثرثرة حول الشخصية المُحترمة التي تتمتَّع بها موكلتُه، وتحدِّي كل رجال الشرطة ومسئولي السجون في إنجلترا أن يقولوا إنها اتُّهمت بأي شيءٍ قبل ذلك قط، أو اعتُقلت لأي شُبهة، قبل الواقعة الحالية. كانت هذه حقيقةً، كما أوضح سليمي؛ لأنه بالرغم من علمه بأنها كانت تنتمي إلى «نوعٍ سيئ من الأشخاص» — لكن كيفية علمه بهذا لا تزال لغزًا ليس لديَّ الحرية لتوضيحه — فقد كانت مع ذلك، كما قال «وجهًا جديدًا».

لم تكن المُدَّعية حاضرةً؛ لأنها، كما أوضح السيد فيتز جيسيبوس جِلَم (الذي عينه السادة تومليسون، وكيوت، وتيب، ووورم، وتومليسون)، كانت في حالةٍ من الانفعال العصبي الشديد بسبب الموضوع، لدرجة أن أصدقاءها خشُوا من النتيجة التي ستترتَّب على حضورها الجلسة؛ وعلاوةً على ذلك، كان ثَمَّةَ مبررٌ للأمل في أن يكون هذا الأمرُ لغزًا، إن لم يكن مصادفةً، أو «مزيجًا عرضيًّا من الملابسات القابلة للتوفيق مع الرأي القائل بالبراءة»، وكان الأمر على أي حالٍ — وتحت أسوأ الاعتبارات — حالةَ هوس تلبَّست السجينة، وأول جُرمٍ ترتكبه. وقد أُمِر السيد فيتز، بناءً على ذلك، بأن يُطالِب بالسماح للمُدَّعية أن تنسحِب من المُقاضاة؛ وكما أكَّد عديدٌ من أبرز القضاة، الذين ازدان بهم يومًا مقعدُ القاضي غيرُ القابل للرشوة في المحكمة الجنائية المركزية، على أنه من الخطأ أن يُطبق القانون على من يُخطئون للمرة الأولى. وحيث إنَّ إدانة الجانية الشابة سيعوق مسار الإصلاح، فقد كان على يقينٍ تامٍّ أن العقل الحصيف الهادئ للسيد سلينجيم سوف يقضي بأن المسلك الذي اختارت السيدة تندرهارت أن تنتهجه كان بإيعازٍ من إحسانٍ مسيحيٍّ نبيل، ومن احترامٍ صادقٍ لمصالح العامة.

إن المبدأ الخاص بإقامة الدعاوى ضدَّ من يُجرِمون للمرة الأولى قد سَمِعتُه يُرسى، من دون شكٍّ، في محاكم العدالة وفي مكانٍ آخر، من قِبَل قضاةٍ ومُعلقين بارزين، لكنَّ السيد سلينجيم لم يعترِف بفعاليته وتأثيره في هذه الحالة. كان شخصًا عديم الرحمة. فلم يسمح للسيدة تندرهارت بالانسحاب من الدعوى، وإنما أعلن أن ثَمَّةَ واجبًا تدين به للمُجتمع وهو إدانة السجينة إذا ذهبت الأدلة إلى إثبات أنها مُذنبة.

كان السيد سلينجيم صارمًا وعنيدًا جدًّا، لدرجة أنَّه بناءً على طلب السيد المُفتش سليمي، رفض ذلك القاضي اليَقِظُ توسُّلَ السيد تورتشواس دودج الصادقَ إليه كي يُطلق سراح مُوكلته، المثيرة للاهتمام، بكفالة. وأُعيدت إلى السجن الاحتياطي لمدة يومين، وأُخبر محامي السيدة تندرهارت أن عليه أن يُقدِّم دليلها في جلسة الاستجواب التالية.

وبناءً على ذلك قُدِّم في الاستجواب المؤجَّل للسجينة ما يكفي من الأدلة ليُبرر للسيد سلينجيم إرسال المتهمة للخضوع للمحاكمة في الجلسة التالية للمحكمة الجنائية المركزية. ورُفض التماسٌ لَجوجٌ آخر للسماح بإطلاق سراحها بكفالةٍ. نُقلت «الشابةُ المثالية» في عربة السجن، مع سجيناتٍ أقل روعةً منها، وأُودِعت سجن نيوجيت. حزنَت السيدة تندرهارت المسكينةُ حُزنًا مُوجِعًا، لكنها وجدت بعض العزاء في تأكيدها المُتكرِّر لجميع صديقاتها، أنها لم تكن تملك منعَ ما حدث.

في اليوم التالي لنقل الشابة المثالية إلى ذلك السجن المشهور، جاءت عربةٌ بدائيةٌ، يجرُّها حصانٌ أشعث، ويكسوها التراب، وتحمل على أحد لوحَيها النقش التالي «جون براون، مزارع، إ...، ميدلسكس»، وتوقفت أمام باب مكتب السادة توملينسون، وكيوت، وتيب، ووووم، وتوملينسون. ترجَّل من هذه المَركبة البدائية رجلٌ عجوزٌ، يرتدي قِرامًا كذلك الذي يرتديه عمَّال المزارع، وكأنه واحدٌ من آخِر مُزارعي جيلٍ كاد ينقرض. كان السيد تورتشواس دودج، وفاءً منه بموعدٍ قطعه، قد وصل إلى هذا المكان قبل بضع دقائق، وظلَّ يذرَع الشارع جيئةً وذهابًا بخُطًى وئيدةٍ ليقتل الوقت.

بعد تبادُل بضع كلماتٍ، ذهب «المحامي العام للصوص» ورفيقُه، الرجلُ العجوز، يلتمسان مُقابلة في الشركة. كان الغرَض من هذه الزيارة أن يسألاهم، في حال قُدِّم طلبٌ لأحد قضاة غرفة المداولة ليسمح بإطلاق سراح الفتاة المثالية بكفالة، إن كانت الشركة ستوافق على أن يُطلِق سيادتُه سراح الفتاة.

دافع الرجل المُبجَّلُ ذو الشعر الأبيض دفاعًا شديدًا عن ابنته التعيسة الحظ، وببلاغةِ أُمِّي، وبكلماتٍ قويةٍ جدًّا، وصفَ الكربَ النفسيَّ الذي تُعانيه أمُّها — مُنذرًا باحتمالية دخولها مصحَّة الأمراض العصبية، إن لم تدخُل القبر — لدرجة أن رئيس الشركة، توملينسون الأكبر، كان ميَّالًا إلى تقديم بعض التنازل، والنظر إن كان لا يستطيع أن يساعد من دون مخاطرةٍ في إخراج السجينة من سجن نيوجيت لمدة أسابيع قليلة قبل ميعاد المحاكمة.

لكن السيد تيب، الذي كان حاضرًا هو الآخر في هذه المقابلة، رأى أن سمعة المؤسَّسة قد تتأثر سلبًا بأي ترتيبٍ يُعدُّ مع سجين. وخلا المحاميان بأنفسهما لبضع دقائق في غرفةٍ أخرى، وناقشا الأمر.

عند عودتهما أبلغ السيدُ توملينسون السيدَ العجوز بأنهم لا يستطيعون تلبية هذا الطلب. كان عويل الأب مُحزنًا إلى أبعد الحدود؛ لكن المؤسسة كانت قد اتَّخذت قرارها، ولم تستطِع أن تتراجع عنه، مهما كانت غزارة فيض الدموع التي قد تتسبَّب فيها هذه النكبة العائلية.

عندما غادر المزارع والمحامي ببطءٍ في مركبتهما ذات الحصان التي لا تكفُّ عن الصرير، صاح السيد دودج قائلًا: «أخرقان يا عزيزي؛ إنهما لا يفهمان العُرف الجنائي. لا بأس، دعْ كل شيءٍ لي. لقد فعلتُها مراتٍ عديدةً من قبل، وسوف أفعلها من جديد.»

في غضون ثلاثة أيامٍ من زيارة الأب الذاهل للسادة توملينسون، وكيوت، وتيب، ووورم، وتوملينسون، كان طلبًا قد قُدم إلى القاضي، الجالس حينها في غرفة المداولة، ليُصدر أوامره بإطلاق سراح السجينة بكفالة. ودُعِّم هذا بإقرار رسمي خَطِّي، يفيد، من بين أشياء أخرى، بأن الفتاة لم تُتَّهم قبل ذلك قطُّ بارتكاب أيِّ جُرمٍ جنائي.

سأل سيادةُ القاضي عن رأي مُحامي الادِّعاء في الأمر. أوضح كاتبُ المحامي العام للصوص أنه، بالرغم من إرسال الإخطار المعتاد في مثل هذه الحالات لهؤلاء السادة، فإنهم لم يحضروا. كان مفهومًا أنهم لم يكونوا مُعترضين على طلب السجينة، ويبدو أن غيابهم قد أثبتَ ذلك. قال سيادتُه إنه لا بدَّ أن يرى ما يُثبت عِلمهم بالتماس السجينة. وقال كاتبُ السيد دودج إنه يستطيع أن يُقدِّم له الإقرار الخطِّي الذي كتبه الشخصُ الذي أوصل الإخطار. قُدِّم هذا الإخطار؛ وأمر القاضي بأنه، عند العثور على ضامنَين على استعدادٍ للاشتراك في كفالةٍ قيمتها ١٠٠ جنيه إسترليني لكلٍّ منهما، مع تعهُّد السجينة نفسها بدفع ٢٠٠ جنيه إسترليني، يُطلقُ سراح السجينة حتى موعد محاكمتها. استُوفيت هذه الكفالةُ من دون عِلم محامي السيدة تندرهارت، وخرجت الشابةُ المثاليةُ من سجن نيوجيت امرأةً حرةً مؤقتًا.

بعد وقتٍ وجيزٍ عُقدت الجلسات، وظهر اسم الفتاة في جدول المحاكمات، مع بيان بالجُرم الذي ستُحاكم من أجله. كانت السيدة تندرهارت قد تعهدَت رسميًّا بأن تُقاضي الفتاة؛ لذا كانت حاضرةً بين الحشد المُتنافِر الذي جلس ينتظر النداء للإدلاء بشهاداتهم. ظلَّ السيد فيتز جيسيبوس جِلَم ينتقل من المحكمة الجديدة إلى القديمة، ومن المحكمة

القديمة إلى الجديدة بالمُذكرة الوحيدة التي معه؛ والتي تخصُّ مُقاضاة هذه الفتاة المثالية. عندما بدأ نظر القضية نزل السيد كيوت بتواضعٍ عن قاعدته المِهنية في قلة الكلام وذلك بمزيدٍ من التوجيهات للمحامي العالِم بالقانون. كان السيد المُفتش سليمي حاضرًا بالطبع مع شهود الشرطة الآخرين.

اعتبر الجميعُ إدانة ومعاقبة المُذنبة حقيقتَين واقعتَين؛ باستثناء سليمي. فقد أعلن أمام المحكمة أن الطير هرَب، وقال إن السيد جِلَم لن يكون أمامه شيءٌ يفعله سوى أن يطالب بتغريم الضامنَين كفالتَها. كان الشرطي السري الأنيق مُحقًّا. فلم تستسلِم أي فتاةٍ مثاليةٍ نشالةٍ كي تُثبت براءتها من خلال اختبارات القانون الجنائي. نُودي على القضية؛ فلم تُجب أي سجينة. حاول السيد كيوت أن يُخفي شعوره بالخزي تحت ابتسامةٍ مُتكلفة؛ فيما بدا السيد جِلَم كئيبًا للغاية حقًّا، وبفظاظةٍ نفَّذ المهمة المتواضعة التي أوكلها له الشرطي المُتأنق؛ كان سليمي مُغتاظًا، لكنه لم يُبدِ أي علامة على ذلك؛ وكانت رغبةُ السيدة تندرهارت — التي سألت بطريقةٍ تنمُّ عن الحزن قائلةً: «من كان يستطيع أن يتوقَّع هذا؟» — في نفي الأشخاص المتورطين في خدعة الكفالة أكبر من رغبتها في إقامة دعوى من أجل فقدان شلناتها وحبات النعناع. بعد تعليقٍ سريعٍ مُختصرٍ على الموضوع، تفرَّق الجميع، وهكذا ستنتهي القصة، باستثناء توضيحٍ أو اثنين أَبلغهما فيما بعد السيدُ سليمي للمؤسسة القانونية البارزة لكلٍّ من تومليسون، وكيوت، وتيب، ووورم، وتومليسون، ويُمكنني أن أُخبر بهما قارئي الآن.

ذات يومٍ التقى السيد كيوت بالمُفتش المُهذَّب في نوبة مراقبةٍ في شارعي ريدجينت ستريت وبوند ستريت، وتبادل معه المُجاملات. اقتنص السيد سليمي هذه الفرصة كي يُحسِّن معرفة المحامي بالعُرف الجنائي.

قال السيد سليمي: «لقد اكتشفتُ كيف جرى الأمر. عندما رأى ذلك الرجل، دودج، أن عليه أن يتعامل مع شركةٍ محترمةٍ كشركتكم يا سيدي، علم أن باستطاعته أن يفعل ما لم يكن من الآمن فِعلُه مع شركاتٍ مثل هامفريز، أو وُنتنرز، أو بيردز، أو لويسيس. لقد أتى فقط بوغدٍ يدعوه كاتبَه كي يُقسِم على أنه أوصل لكم إخطار طلب السماح بالخروج من السجن بكفالة، وهو ما لم يفعله بالطبع.»

أجاب كيوت: «لا، إنه لم يفعل ذلك إطلاقًا.»

أضاف المُحقق: «أعرف هذا. لكن ما الذي يستطيع قاضٍ أن يفعله عندما يكون هناك إقرار خَطي يقول إن الإخطار قد وصلكم؟ سيقول لنفسه: «ها هو ذا دليلٌ يشهد بأن المُدعي على علمٍ بهذا الطلب، وأنه لا يُعارضه؛ فالسكوت علامة الرضا. أعتقد أنه لأن هذا أول جُرمٍ، يجدُر بي أن أُطلق سراح السجينة بكفالة.» وهكذا فعل. لكنَّ دودج، في ظني، ما كان ليُجرب فِعْل هذا مع أعضاء مِهنته الأذكياء يا سيدي.»

أحسَّ كيوت بالخزي، لكنه لم يقُل شيئًا.

واصل سليمي كلامه قائلًا: «لكن الأمر كلفهم مبلغًا كبيرًا من المال. لقد اكتشفتُ كل شيءٍ عن الموضوع. لقد كانت، كما قلتُ، وجهًا جديدًا صغيرًا، ولم تكن بارعةً بعضَ الشيء في عملها.»

«كانت أخت زوجة جُو أتكينز، وهو واحدٌ من أشهر تجَّار المسروقات في لندن. لقد قبضتُ عليها في أول مهمة لها، وكان جميع أفراد العصابة التي تنتمي إليها في رُعبٍ هائلٍ خشيةَ أن تَكشف مُخططاتهم. كانوا مُستعدِّين لدفع ألف جنيه، إذا لزم الأمر، وفي تقديري أن خمسمائة جنيه كانت ستكفي بالكاد لتغطية ما كلَّفَتهم الفتاة من نفقات. قبل كل شيء، إنَّ ما اضطرُّوا أن يدفعوه لدودج، المحامي، لإنجاز مهمَّة الحلف الكاذب بخصوص توصيل الإخطار إلى مكتبكم، لم يكن مبلغًا تافهًا يا سيدي؛ ثم إنه قد تعيَّن دفعُ الكفالة بإعطائهما مائتي جنيه لإرضاء مُمثل السلطة الملكية، وإعطائهما مبلغًا كبيرًا لهما شخصيًّا؛ بعد ذلك تعيَّن عليهم إصلاح الأمور مع الفتاة وزوجها؛ إذ كانت متزوجةً، وكانت زوجةً لحارسٍ بالسكة الحديدية. لقد دفعوا لزوجها مبلغًا ضخمًا ليُبقي فمه مُغلَقًا، وأرسلوه هو وزوجته إلى أُستراليا أو نيوزيلاندا، لا أعرف.»

كان السيد كيوت مُستغرقًا في التفكير، وفي هذه اللحظة قال بطريقةٍ جافة: «من المؤسِف أنَّ هذا الوغد، دودج، لا سبيل إلى شنقه. إنه عارٌ شديد البشاعة على مِهنتي، يا سليمي. لا مانع لديَّ أن أُقاضيه على نفقتي الخاصة.»

قال الشرطي المتأنق: «دع هذا لي يا سيدي. إنني أتعقَّبه يا سيدي؛ وأنا الآن أعرف خدعته، ولن يُفلِت منِّي طويلًا.»

كان سليمي عند كلمته. لقد أمسك السيد تورتشواس دودج وهو يُكرر خدعة الإقرار الخطي، وقضى ذلك المحامي المُذهلُ الذكاءِ مُدةً طويلةً من السجن مع الأشغال الشاقة؛ مكافأةً حكوميةً له على براعته.

الفصل الثالث

إحباط «مكيدة» في السكة الحديدية

أثناء صيف عام ١٨٥٤، كان السيد دبليو جيه ... — وهو رجلٌ ذو خبرةٍ واسعةٍ في هذا العمل، أو النشاط المهني — يستأجر مسرح ثييتر رويال، في مقاطعة بي. بطريقةٍ أو بأخرى، ليس في سُلطان أمهر مديري المسارح وأبعدهم عن الكلال أن يُهيمن على النجاح، مع أننا لم نعرف قطُّ واحدًا من أفراد جماعة العباقرة المُتقِنين المُتعددي البراعات أولئك — بدايةً من المطرب لاملي العظيم صاحب الشهرة الأوبرالية إلى السيد وايلد صاحب السمعة الرديئة التي لازمته دومًا في مجال الفرق المسرحية الجوالة — لم يكن ليؤكد — لو كان التأكيد سيصدر منه وهو على عتبة الخلود — أنه ظلَّ على نحوٍ متواصلٍ، وبانتظامٍ، ومن دون استثناءٍ، يسعى لاستحقاق ذلك النجاح.

ملابساتٌ عديدةٌ، لا تستطيع أي هيئةٍ إداريةٍ أن تتحكم فيها أدنى تحكُّم — مثل الطقس، وحالة التجارة، والمنافسات في «مجال الترفيه»، وأخيرًا، ولكن بالتأكيد ليس آخرًا، ذلك الشيء الغامض الغريب الأطوار، المتحوِّل، الدائم التغير، المُسمَّى ذوق الجماهير — سوف تُطيح بالحسابات الأولية كلها، وتُحيل الآمال الذهبية إلى خيبة أملٍ باهتة.

لا لوم، إذن، يمكن أن يقع على السيد دبليو جيه ...، كما يجب ألا تُستثار دهشةُ القارئ عندما يعلم أنَّ مُغامرةً أكثر خطورةً من المعتاد، حدثت في موسم الصيف، لم تُحقق نجاحًا حتى ساعة كتابتنا هذه القصة. في الحقيقة، لقد انتهت المغامرةُ نهايةً سيئةً للغاية، مثلما يمكن أن يجزم جميع أعضاء شركة السيد دبليو جيه ...، على الأقل مثلما يستطيع هو أيضًا أن يجزم.

في صباح أحد الأيام، نهض المدير من، أو — لأكون أكثر دقةً — في فراشه، ليقرأ نصف دزينة خطاباتٍ وصلته لتوِّها بالبريد. أمسك المديرُ الخطابات بنَهم؛ لأنه، كما قال هو فيما بعد، من بين مجموعةٍ منوعةٍ من المناشدات والعبارات الحَشوية الفخمة ردَّدها، كان لديه حِسٌّ داخليٌّ أنَّ «شيئًا جيدًا سوف يَظهر.» وأنَّ «حُسن الطالع كان في انتظاره.»

لم يروِ السيد دبليو جيه ...، هذه القصة قط من دون أن يُمهد لها بمقدمةٍ مُسهبةٍ جدًّا حول حُلمٍ رآه في الليلة السابقة لها، ومن دون توضيحٍ للأسباب التي جعلته على يقينٍ من أن الخزينة الفارغة في تلك الليلة والليالي السابقة، كانت لا بدَّ أن تليها «انتصاراتٌ رائعة»، و«منازلُ مُكتظة»، وخزينةٌ عامرة من أجله، وتلك النعمة النادرة الحدوث المتمثلة في راتبٍ كاملٍ لكل واحدٍ من أعضاء شركته. ونحن نُعفي القارئ من هذه التفاصيل. يكفي لما نرمي إليه القولُ إن السيد دبليو جيه ...، لم يكن في وضعٍ يُؤهله لرفض «أيِّ عرضٍ مقبولٍ» كان من المُمكن أن ينزل من «أحد النجوم» إلى خشبة المسرح المتواضعة التي يملكها؛ أو من أي رجل أو امرأةٍ آخرين. لذلك راح يقرأ، في صبرٍ وبانتباهٍ، كل رسالةٍ وصلته في ذلك الصباح، مع أن كل الرسائل إلا واحدةً، على الأقل، كانت، في مواسم الرخاء، ستُرمى جانبًا بسرعةٍ مع كلماتٍ أقرب إلى الصراخ منها إلى البساطة. لكن كل الرسائل الحالية، وبعد تفكيرٍ وافٍ، عُدَّت غير مُستحِقةٍ للرد؛ باستثناء الرسالة الأخيرة. كان نصُّ تلك الرسالة كالتالي:

منزل ...، مقاطعة إيزلينجتون، لندن،
العاشر من شهر يوليو، ١٤٥٤

سيدي، لَمَّا أدركتُ، من المديح الذي كرَّره نُقَّادُ جريدة «ذي إيرا» المُتجردون، أنك استأجرتَ مؤخرًا مسرح مقاطعة بي ... لموسم الصيف، وأنك قررتَ، بشجاعةٍ تستحق السمعةَ الحسنة التي حُزتها قبل عدةِ سنواتٍ من بدء مشروعك المُشرِّف الحالي برغم مشقته، ألَّا تعرض على مسرحك وأمام سكان مقاطعة بي ... إلَّا أعمال شكسبير العظيم وأعمال أشهر كتابنا المسرحيين التقليديين المُعاصرين، تشجَّعتُ أن أعرض عليك عرضًا، آملُ ألَّا ترفضه، وهو عرضٌ، إذا وافقتَ عليه، فإنني أتمنى أن يساعد في جَعل تجربتك (التي أستطيع أن أصفها بالنبيلة) تجربةً مُربِحةً لك، كما تستحق، من دون شك، أن تكون.

يمكنني القول، من دون مزيد من المقدمات، إنه سيكون من دواعي سروري أن أُرتب معك للظهور في سلسلةٍ من الأدوار النسائية الأساسية تحت إدارتك الشجاعة.

إنني، في الحقيقة، لمْ أُحصِّل الكثير من الخبرة — حيث لم أظهر إلا مراتٍ قليلةً في عروض مسرحية غير احترافية — لكنَّ اثنين أو ثلاثة من المستشارين الأكفاء جدًّا أكدوا لي أنني أمتلك نبوغًا ومقدرةً درامية، من الممكن — وأرجو ذلك — أن يُكفِّرا، إن لم يُعوِّضا عن قُصوري في الممارسة. في الوقت نفسه، أنا مُسلِّمةٌ تمام التسليم بوجاهةِ الاعتراض على قلة تمرُّسي، بحيث إنني سوف أكون راضيةً تمامًا عن أداء عدة أدوار دون أيِّ مكافأةٍ على الإطلاق، وسأكون مُستعدةً تمام الاستعداد للتفاوض معك فيما بعد بتسامحٍ إذا نجحَت عُروضي الاحترافية الأولى، كما أتمنَّى بالتأكيد، وأنا لديَّ ما يكفي من التبجُّح لأعتقد أنها سوف تنجح.

بما أنني حتى الآن قد أوضحتُ ما أراه وما أتمناه بجلاءٍ وصراحة، أظن أن من الملائم أن أضيف أيضًا أنني لا أستخفُّ بتأثير وسائل المساعدة تلك، والتي تُساهم مساهمةً كبيرة وجوهرية للغاية في تضخيم وتعميق التأثير الذي تتمتع به أصدَقُ وأعلى حالات العبقرية. يُسعدني أن أقول إن صديقاتي، اللاتي يتَّفقن معي في فكرتي عن هذا الموضوع، قد اشترين لي، بسبب ذلك، ملابس شديدة الأناقة، ومجوهراتٍ تُناسبها بمبلغٍ ضخم.

هل ستتفضل بإعارة هذا الخطاب الطويل نوعًا ما انتباهك، وتتكرم عليَّ بردِّك في سطرٍ أو اثنين في أقرب فرصةٍ تناسبك؟

وتفضل، يا سيدي، بقبول فائق احترامي.

إيلين ويلكينسون

المحترم ... دبليو جيه ...

مسرح ثييتر رويال، مقاطعة بي ...

«**ملحوظة**: لقد أعطيتك اسمي وعنواني الحقيقيين في سرِّية؛ لكنني، بالطبع، لا أُحب أن يظهر ذلك الأول في الجريدة المحلية.»

جلس المدير في سريره ثابتًا متجمِّدًا لبضع لحظات، ثم انفجر قائلًا:

«يا للروعة! رسالةٌ معقولةٌ على أي حال. إن لتلك المرأة روحًا رائعة، أنا واثقٌ من هذا. أنا رجلٌ لا أُحبذ الحياة الزوجية، وقد كبرتُ قليلًا على المغازلة الرومانسية، وإلَّا لِمِلتُ إلى الوقوع في حبِّ الآنسة إيلين ويلكينسون في الحال، دون أن تسبق لي رؤيتُها. ولِمَ لا؟ إنَّ الأستاذ، أيًّا كان اسمه، فتى الإعلانات هذا، مُحق؛ إن أفضل ما يُحكم به على الشخصية هو خط اليد وأسلوب التعبير. أرى أنها امرأةٌ رائعة. إنني أومن بذلك وكأنها أُختي الشقيقة، أو — تبًّا — كأنها زوجتي، هكذا كنتُ سأقول. لكن هل بإمكانها أن تُمثل؟ تلك هي المسألة، كما يقول هاملت. ليست كلُّ امرأةٍ ذكيةٍ، أو حتى جميلة، تستطيع أن تُصبح نَجمةً هذه الأيام. والآن، كم هو مؤسفٌ أنها لم تذكر مزيدًا من التفاصيل! إن هذا مُشابهٌ تمامًا لِما يفعله هؤلاء الأذكياء، هؤلاء العباقرة، كما يُسمُّون أنفسهم، وخاصةً النساء منهم. لقد كتبتْ رسالةً مُفرطةً في الذكاء، كما قلت، لكنها أغفلَتْ بعض التفاصيل التي لا بدَّ أنها تعلم أنني سأودُّ أن أعرفها. تُرى كم يبلغ طولها عندما ترتدي حذاءها الصغير؟ أشقراء هي أم سمراء؛ نحيلةٌ أم بَضَّة (عزباء، أنا واثق من هذا). لكن، تبًّا لها؛ كان بإمكانها أن تُخبرني عن عمرها؛ أقصد، عمرها التقريبي، تزيده أو تنقصه، لا يهم. لكنني أعتقد أنها سوف تفعل. إنها تملك ملابس أنيقة، هذا واضح؛ ومجوهرات أيضًا؛ هذا جيد. لا شكَّ أنها شابة، وحسنة المظهر على نحوٍ مقبول؛ أتصورها نحيلة، رشيقة، أنيقة. سوف أُشركها، على الأقل، في الدور الأول. لا أتوقع أن أتسبب في أي ضررٍ بهذا. إنها لن تُكلفني أي شيء، وربما تجلب لي الكثيرَ من الحُليِّ القصديرية. إن الملابس والمجوهرات عوامل جذبٍ للجمهور من الطراز الأول. ألن يُصفق جمهور البلكونات العُليا إذا كان لديها أيُّ شيءٍ من الموهبة الحقيقية؟ ما الذي قد أُخاطر به؟ والآن، لأرى على وجه التحديد بضعة إعلانات، بعض إعلانات الحفلات المسرحية للتعليق على الجدران، وبعضها للتوزيع. أنا واثقٌ أنني سأجني من وراء هذه الفتاة ما يساوي ثمَن هذه الأشياء. سوف أوظفها؛ لقد عقدت العزم على ذلك في عقلي؛ لكن يجب ألَّا أُظهر أنني مُتشبِّث بالعرْض كما قد تتشبث سمكة نهمة تتضوَّر جوعًا بيرقةٍ سمينة.»

هكذا ناجى المديرُ نفسه.

بعد ذلك عدل قلنسوة النوم، وألقى رأسه فوق كسوةٍ وسادةٍ بيضاء كبياض الثلج محشوةٍ بزغبٍ حقيقي، وغطَّى نفسه بأغطية الفراش النظيفة، وحاول أن ينام؛ لكن

الشمس الساطعة التي أرسلت أشعتها مُبكرًا جعلت النوم عصيًّا، كما أن حلم اليقظة الذي رأى فيه خزانته تفيض بالمال جعل النوم مُستحيلًا. لذا، بعد تقلُّبٍ قَلِقٍ آخر — على طريقة الكسول الذي تتحدَّث عنه قصيدةُ الدكتور واتس — نهض ذلك الرجلُ ذو المُثابرة التي لا تعرف الكلال وطلب وجبة الإفطار.

بعد قليلٍ أُحضرت هذه الوجبةُ الصحية؛ وبمساعدة سيدٍ عجوزٍ كان قد رأى أيامًا أفضل من هذه، لكنه الآن يعيش كعمالةٍ زائدة في المسرح، أو عالة على المدير العظيم، أعدَّ ذلك النبيلُ ردًّا على خطاب مُراسِلته الجميلة، وكان نصه كالآتي:

مسرح ثييتر رويال، مقاطعة بي ...،
الحادي عشر من شهر يوليو، ١٩٥٤

سيدتي، يُشرفني أن أُعلمكِ أنني تسلَّمتُ رسالتكِ المهذبة للغاية والمكتوبة ببراعة، التي أرسلتها بالأمس. تلك الرسالة، في ظني، هي نتاج عقلٍ رفيع الثقافة، وهي رسالةُ سيدةٍ تُضمر شعورًا ساميًا (لكنه سليمٌ جدًّا) تجاه الرسالة النبيلة التي قُدِّر للفن المسرحي، تحت إدارةٍ يقظة الضمير، أن يُحقِّقها.

لقد اقتنعتُ تقريبًا، يا سيدتي، بعدما قرأتُ رسالتك بقبول عرضك العادل والمعقول للغاية، وأنا موافقٌ على تحمُّل التكاليف الباهظة التي سأتكبَّدها من أجل الدعاية والاستعدادات الأخرى اللازمة لظهورك في دور شخصياتٍ مسرحيةٍ تقليدية. لكنني واثقٌ تمام الثقة أنك ستغفرين لي التردُّد الطفيف الذي سبَّبه التريُّث وإعادةُ النظر في الأمر (والذي ليس دائمًا الأفضل، برغم أن أحد الشعراء قال إنه كذلك). ثَمَّةَ بضعة أمور صغيرة أريد بعضَ المعلومات عنها؛ وإذا كان بإمكانك إما أن تأتي إلى مقاطعة بي ... بنفسك (وهو ما أجرُؤ في تواضعٍ على أن أقترح أنه سيكون الأفضل)، أو تجعلي صديقًا حصيفًا — رجلًا على دراية وفهم بالمِهنة — يأتي لمُقابلتي نيابةً عنكِ، أعتقد عندئذٍ أننا نستطيع أن نُنجز اتفاقًا يُرضي الطرفين من دون شك.

أرجو أن تتكرَّمي بإخباري المزيد عن هذا الموضوع بالخطاب التالي، حيث كنتُ على وشك إمضاء اتفاقاتٍ أُخرى عندما وصلتْني رسالتك بالأمس؛ وإذا

لم نصل إلى اتفاقٍ لأيِّ سببٍ كان، فسيكون من الضروري لي أن أَعقد تلك الاتفاقات الأُخرى في الحال.

مُرسِله إليكِ يا سيدتي، خادِمُكِ المطيع
دبليو جيه ...
الآنسة إيلين ويلكينسون

كانت هذه الرسالة مصدرَ بهجةٍ للآنسة إيلين ويلكينسون وصديقاتها؛ فقد رأين أن الاتفاق قد أُنجز فعليًّا.

كانت الآنسة ويلكينسون، في بعض النواحي، امرأةً ذات عقلية مُستقلة وحازمة من دون شك. لقد قرَّرت هي وصديقاتُها بعد التشاور أنه ينبغي لها أن تتوجَّه من لندن إلى مقاطعة بي ...، وتُنهي المفاوضات. ولم تجد صعوبةً في هذا؛ ففي أقل من نصف ساعةٍ بعد وصولها إلى المدينة كانت قد اتفقت مع المدير على كل ما أرادت الاتفاق عليه. جرى الاتفاقُ على أن تؤدي دورًا من دون أجرٍ أو مكافأة. حاول المدير أن يحصُل على مُقابلٍ ماليٍّ نظير سماحه لها بالظهور على خشبة مسرحه؛ فقد اقترح أنه يجب أن يحصل على ٥٠ جنيهًا إسترلينيًّا نظيرَ ما أنفقه من تكاليف (وهو ما لم يتجاوز ١٠ جنيهاتٍ إسترلينية في الحقيقة)، وأصرَّ لبضع دقائق على أن يحصل على ٢٠ أو ٢٥ جنيهًا؛ لكن الآنسة أكَّدت له أن صديقاتها أنفقنَ الكثير جدًّا على ملابسها وتعرِف أنه سيكون من المُستحيل أن تحصل على أي شيءٍ آخر منهن، وأنها لا تستطيع، في الحقيقة، أن تطلُب منهن شيئًا. وأضافت، بلهجةٍ تنمُّ عن صدقٍ قاطع، أنه إذا كانت خدماتها المجانية لن تُسوِّغ له المخاطرة بالإنفاق على الإعلانات والطباعة، فلا بدَّ لها أن تتخلى، في الوقت الحاضر، عن أملها في الظهور على مسرح ذا ثييتر رويال، بمقاطعة بي ... أدرك المدير خطورة إيقاف تفاوضٍ لن يخسر بسببه، مهما حدث، أكثر من مقدارٍ ضئيلٍ من المال، إن كان سيخسر أيَّ شيء، وربما سيجني منه مبلغًا لا بأس به. لم تؤدِّ المقابلةُ بهذا الرجل الداهية المُتمرِّس إلى أن يتوقَّع أن يجد في الآنسة إيلين ويلكينسون نسخةً مشابهة للآنسة أونيل، أو كيمبل، أو تري؛ لكن ثقته في أنها ستُصبح نجمةً من الدرجة الثالثة أو الرابعة، أو أنها — على حدِّ تعبيره — «منحة سماوية مثالية» أُرسلت له في محنته، قد تأكَّدَت. سأل المدير بضعة أسئلة، كان بعضها مُتعلقًا بالملابس والمجوهرات، وبدَفقٍ من العبارات

التقليدية عن البهجة التي يشعُر بها لمساعدته في تنمية طموحٍ واعدٍ وإظهارِ عبقريةٍ دفينة، وافقَ على قبول الخدمات المجانية التي ستُقدِّمها الآنسة.

إن القارئ، فيما أرجو، لن يتوقَّع منِّي أن أصف نوع الإعلانات التي وضعها السيد دبليو جيه ... في صحف مقاطعة بي ...، أو التي ألصقها على جدران تلك المدينة. كان هذا المدير يعتقد أنه عبقري في هذا المجال، وأنا مُلزمٌ أدبيًّا بأن أقول، وهو كلامٌ في صالحه، إن السيد فينسنت كروملز ما كان ليستطيع أن يُنجز عمله في موقفٍ كهذا أفضل من السيد دبليو جيه ...؛ لذلك يكفي أن أُضيف أنَّ الظهور الأول للمُمثلة «التراجيدية» الجديدة على أي خشبة مسرحٍ قد أُعلن عنه بأكثر الأساليب فعالية.

جاء الظهور الأول للآنسة إيلين ويلكينسون في ظروفٍ مواتية. لم يكن ثَمَّةَ ما يُنافس على جذب الجمهور في مقاطعة بي ... في تلك الليلة. كان ثَمَّةَ عرضٌ مصورٌ للأرض المُقدسة سيُقام في المدينة في ذلك الأسبوع، لكن رؤية المُلصقات الكبيرة لمسرح ذا ثييتر رويال نبَّهَت إمَّا وَرَعَ مالكِ المكان أو حصافتَه المالية؛ الذي «انتقل» إلى المدينة المجاورة، حيث لم يكن للصورة الجيدة عاملُ جذبٍ مضاد، وحقَّق العمل نجاحًا مُجزيًا. حقَّقت الليلة الافتتاحية للعمل نجاحًا واضحًا. كان المسرح في الحقيقة مُمتلئًا حتى نصفه بالجمهور، مما سمح لمُخيلة المدير المُفعمة بالحيوية أن تجعله يُعلِن عن تكدُّس المسرح، وأن يعتذِر عن التصرُّف الفظ الواضح المُتمثِّل في رفض تلقِّي أموال التذاكر على أبواب مسرحه. من نواحٍ أخرى لم يكن العمل مُخفقًا، وحقَّق أرباحًا للمدير من دون شك، إن لم يكن للآنسة وصديقاتها؛ اللاتي ألتمِس صبرَ القارئ بشأنهن، وبشأن أي جزءٍ مالي من قِصتنا.

يجب ألَّا أنسى أن أصف مظهر الآنسة إيلين ويلكينسون وملابسها وصفًا شاملًا. لقد كانت في سنِّ السادسة والعشرين تقريبًا، ذات قوامٍ ممشوق نوعًا ما، وكان وجهها مُستديرًا لكنه شاحب، وكانت تظهر عليه علامات انطفاء اللون، وكانت عيناها السوداوان مُتراجِعتَين قليلًا إلى الداخل، أو كانت تعلوهما جبهةٌ متقوسةٌ أكثر قليلًا من المعتاد في جباه السيدات. كانت تلك الجبهة أوسع قليلًا، وربما أعلى قليلًا — لكنها كانت أوسع بالتأكيد — من المُعتاد في جباه بنات جنسِها. كانت قامتها أطول من المتوسط إلى حدٍّ ما، فلم تكن طويلة، وكانت ذات طلعةٍ مهيبة، أو مظهرٍ قيادي. لقد تلقَّت ما لا بدَّ أن يُعَد، بالنسبة لامرأة، قدرًا كبيرًا من التعليم؛ لكنه لم يشتمل على أي اتساعٍ استثنائي أو مُميَّز في مقدار التثقيف أو الرُّقي. وإيجازًا لمُحرَزاتها وقدراتها العقلية، ووضْعِ وصفهما في صياغةٍ مألوفة، يمكن أن نصِفَها بأنها «امرأةٌ ذكية»، لكنها لم تكن عبقرية، ولم تكن

حتى تمتلك درجةً عالية من الموهبة، لكنها كانت تتمتع بالصبر والمُثابرة، مع أنهما لم يكونا بارزَين؛ لأنها في الحقيقة لم تُظهر سِمةً واحدةً بارزةً بروزًا واضحًا، أو لم تُظهِر ما يُسمَّى بأسلوب توماس كارليل، بالفردانية. إن النقَّاد المحليين، الذين لم يُبالغوا في الثناء على أداء السيدة، ولم يستهجنوه مُطلقًا، قد صرَّحوا تباعًا أنه «مُشرِّف، لائق بسيدة، واعٍ، مدروس جيدًا، مصقول، ومُستحسن.» تجاوز أحد النقاد المُعادِين حتى اقترب كثيرًا من الهجوم بقوله إنَّ السيدة كانت «عينةً متوسطةَ الجودة من الأشخاص المتوسطي القدرة السائدين في وقتنا.» لكن هذا كان أقسى شيءٍ قِيل فيها. كانت الجماهير راضيةً عنها بصورةٍ مقبولة؛ أما ملابسها، التي أُشير إليها إشارةً خفيفةً، أو بالأحرى أُلمِع إليها في إعلان الحفل المسرحي، فقد تلقَّت الإعجاب الذي تستحقُّه في المقصورات، وباحة المسرح، والشرفة العُليا.

سريعًا ما قضى الوقت — مُحطم الأوهام، الصانع والهادم العظيم للمكانات المرموقة — على السحر الذي أضفَتْه المهارةُ الإعلانية للمدير على هذه السيدة. أصبح واضحًا في أقل من أسبوعٍ أن الآنسة إيلين ويلكينسون لن تصنع له ثروة، أو تُعوِّضه في الحقيقة عن الحظ العاثر الذي مُنِي به في هذا الموسم. لقد عوَّضته جيدًا جدًّا، لكنها لم تُحقِّق توقُّعاته. إلى أي مدًى تخلَّفَت عن التوقُّعات التي وضعها، أُفضِّل ألَّا أقول؛ لذا عزم على التخلُّص منها حالَما ينتهي عقد العمل الأول. لكنَّ أزمةً وجفوةً وقَعَتا قبل هذا الإنهاء الطبيعي للعقد؛ فلم ينقضِ سوى أُسبوعٍ على الظهور الأول حتى وقع سوءُ تفاهمٍ بسيط بين واحدةٍ من أعضاء الشركة وبين بطلتِنا، التي لجأت إلى المدير، ولم تجد فيه النصيرَ الذي كانت تأمُل أن تجده. وقد أدَّى هذا إلى اعتراض، وأدَّى الاعتراض إلى فسْخ العقد. وهنا — ودَعُونا نقول هذا إنصافًا للطرفَين — أظهر كِلا الطرفَين درجةً من اللياقة، إن لم يكن من سموٍّ الأخلاق، لا يُظهِرها المُمثلون والمديرون عادةً، كما شهدت سجلاتُ إحدى محاكم العدل العُليا، منذ فترةٍ ليست بالطويلة؛ فقد اتفقت الآنسة إيلين ويلكينسون والسيد دبليو جيه ... — بأفضل طريقةٍ لائقةٍ بسيدةٍ فاضلة، وخليقةٍ برجلٍ فاضل — على أن يتفرَّقا، وتفرَّقا بالفعل. لم ينطق أيٌّ من الطرفَين بكلمةِ غضبٍ واحدة. لقد أُرسِلت العباراتُ الأخيرةُ من الفندق الذي تُقيم فيه السيدة إلى حجرة المدير الخضراء، وكانت عبارات مديح. وغطَّى ذَوقُ المدير انسحابَ ملكة التراجيديا تغطيةً أنيقة. من حُسن الحظ

أنها لم تُثِر رغبته في الانتقام، الذي كان مِن المُمكن أن يؤدي به إلى اتخاذ مسلكٍ — أملًا منه في الإضرار بسُمعتها وآمالها المهنية — ربما كان سيرتدُّ بالضرر عليه هو. في الواقع، لقدرة المدير على التفكير في الموضوع بهدوء، رأى أن مصلحته، مثل مصلحة السيدة أيضًا، تكمُن في الحفاظ على الظهور بمظهر الناجحين؛ لذا صرَّح أن عملها في مسرحه لم يكن سوى تجربة، وأن نجاحها الرائع في مقاطعة بي … سوف يتبَعُه قريبًا ظهورُها في العاصمة الكبرى، ما لم يُقنعها بعضُ صديقاتها (نظرًا لارتباطها الشديد بهن)، اللاتي كنَّ مُعترِضات على مسار طموحها، بأن تترك المسرح؛ الأمر الذي يعتقد هو أنه سيكون كارثةً قومية.

يقودنا ذِكر الفندق إلى توضيح أن السيدة قد استأجرت جناحًا — مكوَّنًا من غرفة جلوس وغرفة نوم — في أحد أفضل فُندقَين في المدينة، وما من مدينةٍ أخرى في إنجلترا تستطيع فنادقها أن تتفوَّق على فُندقَيْ مقاطعة بي …، اللذَين أقامت المُمثلةُ في واحدٍ منهما. لم أصف أحداثَ وصولها، ولا الصخب الذي تسبَّبت فيه بين السيدات، والخدَمِ من كِلا الجنسَين في البناية. فلم يكن هذا ضروريًّا، لكن سيكون من لُطف القارئ أن يستنتج أن رحيلها كان حدَثًا مُهمًّا.

قالت الآنسة إيلين، لعاملة النظافة المسئولة عن الغُرف العُليا، ليلةَ رحيلها: «ماري، تذكَّري أنني ذاهبةٌ إلى لندن بالقطار السريع غدًا، ولديَّ الكثير لأفعله، كما ترين، في إعدادِ وحَزمِ أغراضي. لا تدعيني أنام لِما بعد الثامنة من صباح الغد. وهل يُمكنني أن أجد شخصًا ما أستطيع أن أعتمد عليه ليساعدني؟»

أجابت الخادمة: «سوف أُساعدكِ يا آنستي، إذا أحببتِ.»

«يا إلهي، شكرًا لكِ، أنا ممنونةٌ للغاية؛ لكنني لا أُحبُّ أن أُتعبكِ كثيرًا هكذا بمفردك. سوف أَقبل عرضكِ، لكن أَلَا يُمكنكِ أن تأتي بشخصٍ آخر — واحد من خدَم الطابق السفلي — ليساعد هو الآخَر؟»

«لا يا آنستي، يُؤسِفني أنني لن أستطيع أن أستغنيَ عن سوزان، عاملة التنظيف في غرف الطابق السفلي، كما أن الخادمة لدَيها الكثير من العمل لتُنجزه بحيث أخشى أن سيدي قد يلومني إذا طلبتُ منها أن تساعدنا. لكن غاسلة الملابس امرأةٌ أمينةٌ جدًّا، رغم فقرِها؛ هل أستبقيها عندما تأتي في صباح الغد؟»

«بالتأكيد؛ فكرةٌ جيدةٌ جدًّا منكِ. ومن سيُرافق حقائبي إلى المحطة لِحين وصولها في أمانٍ عندما تُحزم؟» ثم قالت مُتنهدة: «يا لخيبة الأمل! ليتني طلبتُ من أحد أبناء عمِّي أن يأتي ويعتني بهذه الأشياء من أجلي.»

«حسنٌ، أما عن هذا يا آنستي، فإن خادمنا المسئول عن مسح الأحذية رجلٌ موثوقٌ للغاية. يمكنكِ أن تثقي به. باركك الربُّ يا آنستي، إن مندوبي البيع المُتجولين يأتمِنونه على الكثير والكثير من مئات الجنيهات كل ليلة. تعرفين، عندما يكتُب أحد مندوبي البيع المُتجولين رسائله، فإنه يريد أن يُرسِل إلى بلده، إلى المؤسسة التي يعمل لحسابها، كلَّ المال الذي حصل عليه، ويَعدُّ ما معه من الجنيهات الإنجليزية الذهبية في الليل، ويقول لخادم مسح الأحذية: «جون، ها هي ذي مائتا جنيه ذهبي؛ أحضِرْ لي جنيهاتٍ ورقيةً بدلًا منها.» ويقول له خادم مسح الأحذية: «نعم يا سيدي.» وأحيانًا ما يأتي بالأوراق النقدية من مكانٍ، وأحيانًا من مكانٍ آخر. وليس مَن يفعل هذا مندوبَ بيعٍ واحدًا، ولا مندوبَيْن، وإنما كثيرون منهم يفعلون هذا بانتظام. يمكنكِ الوثوقُ بخادمنا المسئول عن مسح الأحذية يا آنستي. أؤكد لكِ أنه لن يسرق خاتمًا واحدًا من خواتمكِ، ولو كانت من الألماس — وهي، فيما أعتقد، وفيما يتعلَّق بهذا الأمر، من الألماس حقًّا — وتُساوي ألف جنيه إسترليني.»

ربما بدأ القارئ يعتقد أن رئيسةَ عاملاتِ الغُرَف الفصيحةَ كانت تُكنُّ شيئًا من العطف لخادم مسح الأحذية. ربما كانت كذلك؛ لكن بما أن تلك النقطة لم يكن لها علاقةٌ بلُغز اختفاء خزانة الملابس، لم أتوقَّف للتحقيق فيها، ولا أستطيع أن أُقدِّم أي معلومة.

تَقرَّر في النهاية أن تحصل الممثلة على العون المُشترَك لكلٍّ من رئيسة عاملات تنظيف الغرف وغاسلة الملابس الأمينة في تعبئة المجوهرات والملابس؛ على أن يُساعد خادم مسح الأحذية — الذي كان سيرافق الأمتعة النفيسة بعد ذلك وهي تُنقَل إلى المحطة، بعد أن أَشركَته مادحتُه هو الآخَر — إذا احتاجتا لمساعدته، في العمل التمهيدي.

تركت رئيسةُ العاملات السيدةَ بعد إبرام هذه الترتيبات، وبالطبع قصَّت كلَّ ما حدث، ربما بأسلوبٍ يُوحي بالأهمية، على الخدم الآخرين في الفندق. أثارت فكرةُ احتكار واحدةٍ من الخادمات الأعلى رتبةً للثقة كلها، والربح كله المتوقَّع من الحدَث، القليل من الغيرة. كما تسبَّب الوصفُ الرائع لفخامة وبريق ملابس وجواهر الممثلة في إثارة إحساسٍ قويٍّ بالفضول، لم يُخفِّفه نومُ الليل المُنعش.

في صباح اليوم التالي، بدأت تعبئة الجواهر والملابس في حوالي الساعة التاسعة. بدأت الخادمتان والمُمثلة في العمل، ووضع الخادم المسئول عن مسح الأحذية نفسَه (مُتوقعًا ثناءً وافرًا) بالكامل تحت تصرُّف السيدة. وجدت إحدى الخادمات، كذلك، نفسها غيرَ مشغولة، فعرضت خدماتها الإضافية. لم تعتقد رئيسةُ عاملات تنظيف الغُرَف أن خدماتها تلك كانت ضرورية؛ لكنَّ حرص الآنسة ويلكينسون على جعل المهمة خفيفةً بقدْر الإمكان أَقنعها بأن تُصرَّ على أن تستفيد المرأتان الأُخريان من هذه المُساعَدة الإضافية.

أخيرًا أُودِعت الجواهرُ، التي لم تكن شديدة الندرة ولم تكن كثيرة العدد بما يجعل امرأة من النبيلات اللواتي يتمتعن بحظوة تفوق الآخرين قانعةً بها، لكنها كانت أغلى بكثيرٍ جدًّا مما تمتلكه مُمثلةٌ في العادة، والتي تأكَّدتُ من أنه لا شكَّ في كونها حقيقيةً؛ أُودِعت، مع أثواب الساتان، والحرير، والدانتيل، بأمانٍ في عدةِ صناديق. عُنون كلٌّ من هذه الصناديق بعنايةٍ، ثم سُلِّمت إلى مسئول مسح الأحذية، الذي سار خلف العربة التي كان يجرُّها أحدُ ماسحي الأحذية الأقل منه رتبةً، من الفندق إلى محطة السكة الحديدية. أدَّى المندوبُ الموثوق فيه لدى نزلاء غرفة وكلاء البيع المتجولين كذلك مهمةَ مرافَقة الأمتعة النفيسة وهي تُوضَع في عربةٍ مُقفلةٍ تحت حماية حارس القطار، كما أنه — أقصد الخادم المسئول عن مسح الأحذية — لم يغادر المحطة مُطلقًا ولم يرفع عينَيْه عن العربة إلى أن انطلق القطار. لا شيء أكثر وضوحًا، ولا أقل قابليةً للتشكيك فيه، مِن الحقيقة المتمثلة في أن الصناديق كانت تحتوي على المجوهرات والملابس، وأن عربة الحارس كانت تحتوي على الصناديق، عندما انطلقت القاطرة البخارية بسرعةٍ فائقةٍ إلى العاصمة، حاملةً المُمتلكات وصاحبتها، وأشخاصًا آخرين، في ذيلها.

لديَّ كلمةٌ هنا عن المُمثلة في صباح اليوم الذي غادرت فيه.

فيما بعد قالت رئيسةُ عاملاتِ تنظيفِ الغرَف لزملائها من الخدم: «مسكينة هذه المرأة، لكنها كانت مضطربة. إنها لم تستطع أن تتناول إفطارها، وما كانت ستأخذ معها لقمةً من أي شيء، لولا أنَّني أكَّدتُ عليها أن تفعل؛ لكنكم، كما قلت، لا تستطيعون أن تحصلوا على أي شيءٍ حتى تصِلوا إلى لندن. فالقطار لا يتوقَّف إلا مرةً واحدةً، في مقاطعة آر ...، ولن تجدوا أي شيءٍ شهيٍّ هناك. لذا ذهبتُ إلى نادلة الفندق وقلتُ: «اصنعي لي بضع شطائر شهية للآنسة ويلكينسون؛ فهي لم تتناول أي شيءٍ على الإفطار، وستحتاجُ لتناوُل شيء قبل أن تصل إلى لندن.» وهكذا أحضرتُ لها بعض الشطائر، ووضعتُها في حقيبة يدِها، وقلت لها عندئذٍ: «آنستي، يجب أن تأخذي معكِ شيئًا قليلًا لتأكليه».»

لَمَّا لم تقع حادثةٌ في الطريق، وصل القطار في موعده إلى محطة لندن. لم تتناول السيدة — التي سافرت دون إفطارٍ — شطائرَها، لا مناصَ من افتراض هذا، فبدأت تُحسُّ بإعياءٍ عندما اقتربت من العاصمة. لكن القطار توقَّف في الحال؛ لذا توجَّهت مباشَرةً إلى المقصف لتأكُل كعكةً، وبعد بضع دقائق عادت لتُحضر أمتعتها.

لم تجد الأمتعة؛ بطريقةٍ أو بأخرى اختفت هذه الصناديق النفيسة! كيف تُراه حدث هذا؟ أُصيبت السيدة بالذهول؛ فباستثناءِ فُقدان زوجٍ — وبافتراضه زوجًا جيدًا — أو طفلٍ حبيب، ما كان لشيءٍ أن يُعذِّب قلب امرأةٍ هذا العذاب الشديد كما فعل التَّكْلُ المُفاجئُ والكامل للملابس والمجوهرات بهذه الطريقة. لقد شبكَت يديها، وراحت تذرَع المحطة جيئةً وذهابًا بسرعةٍ، وتصيح: «أين صناديقي؟ أين هي؟» ولم تجد مَن يُواسيها. قدَّم المسافرون القليلون المُتبقون والموظَّفون آراءً تباينَتْ في درجة حصافتها؛ لكن الجميع اتفقوا على أنه كان أمرًا غريبًا، ولا بدَّ من التحقيق فيه.

أخيرًا ركبت الممثلةُ الذاهلة، التي لو كانت قد قدَّمت أداءَها في محطة السكة الحديدية تلك في مدينة بي … لكان رائعًا بما يكفي ليأسر جمهورها، ركبت إحدى عربات الأجرة، وعادت باكيةً إلى البيت.

أسفرت استشارتها مع أصدقائها عن استشارة أحد المحامين. وقد رأى ما رآه شخصٌ آخَر من قبله، وهو أن المسئولية القانونية لشركة السكة الحديدية كانت واضحة، وأن الأدلة كاملة تقريبًا. كان من الممكن، بوجهٍ عام، إظهارُ قيمة الملابس والمجوهرات؛ كان كل ما يلزمه أن يحصل عليه هو دليل مُحدَّد لقيمتها. كان من الممكن كذلك إثباتُ تسليم الصناديق للحارس في مدينة بي …، وذلك عن طريق شاهدٍ مُستقلٍّ إلى أبعد حد، شاهدٍ يعرف أمانتَه عددٌ لا حصر له من مندوبي البيع المتجولين. أما محتويات الصناديق فكان من الممكن إثباتها عن طريق شهادةٍ مُماثلةٍ في استقلاليتها للشهادة الأولى. قال المُمارس القانوني إنه لم يسبق له أن تولَّى قضيةً أفضل من هذه. كان على الشركة أن تُوضِّح ما الذي حلَّ بالممتلكات التي تتبَّعَها خادمُ مسح الأحذية تتبُّعًا لا جدال فيه البتَّة حتى وصلت إلى أيدي موظفيها. كيف سيفعلون هذا؟ أعاد المحامي سؤاله وكأنه يُناجي به نفسه، وكانت نصيحته الواضحة للغاية أنه يحق للآنسة ويلكينسون أن تطالِب الشركة بالتعويض، وأنه ما من شيءٍ، سوى معجزةٍ، يستطيع أن يمنعها من الحصول على حقوقها القانونية؛ تعويضًا كاملًا وكبيرًا عن الملابس الضائعة والمجوهرات النفيسة، إلى آخره.

كتب المحامي الخطابَ المُعتاد، وعندما لم يأتِ الردُّ عليه على هيئة شيكٍ مصرفيٍّ بالمبلغ المطلوب يُصرَف من مصرفيي الشركة، أصدر مذكرة قانونية، وأقام دعوى قضائية في محكمة كوينز بينش بمقاطعة ويستمنستر.

قصَّ كلٌّ من رئيسة عاملات تنظيف الغُرَف، والخادم المسئول عن مسح الأحذية، وغاسلة الملابس الأمينة، والخادمة، وماسح الأحذية الأدنى رتبة، الجزءَ المتعلق به من هذه القصة. قُدِّم دليلٌ آخر على قيمة الأشياء، ولم تملك الشركة في الحقيقة أي رد. لم يستطيعوا التشكيك في حقيقة أن الأمتعة سُلِّمت لموظفيهم، أو في قيمة محتويات الصناديق. فلو كانوا فعلوا هذا، لكان معنى ذلك اتهام عددٍ من الشهود النزيهين مَوثوقي السُّمعة بالحلف الكاذب. كل ما استطاع عملَه السادةُ الخبراء الذين تولَّوا مهمة الدفاع عن المُدَّعَى عليهم هو أنهم استجوبوا الشهود؛ الأمر الذي لم يُسفر عن شيءٍ سوى تعزيز أدلة الثبوت، وقالوا في مرافعة، في الحقيقة إنه أمرٌ غريبٌ وغامضٌ. نعم، كان ثَمَّةَ موضوعٌ آخر يستحق التعليق. لقد قال كذلك السيد لينكس، وهو أحد مستشاري الملكة القانونيين، والمستشار القانوني الأول للمُدعى عليهم، إنه مُلزمٌ أدبيًّا بالاعتراف بأن الشهود قد أظهروا كل العلامات التي تدل على أنهم شهودٌ أمناء وصادقون، وإنه ليست لديه شكوى من الشهود الذين قُدِّموا، لكنه يعتقد أنه أمرٌ لافتٌ للنظر، وشديد الجور لُموكِّليه — فضلًا عن كونه ظرفًا مُريبًا — أن المُدَّعية الجميلة لم تُستَدع للمثول أمام المحكمة. وقال صديقه العلَّامة، السيد سرجينت بيردلايم، إن هذه السيدة لا يمكنها أن تُدلي بأي شهادةٍ في القضية. ثم أكمل السيد لينكس كلامه قائلًا: «سوف يلاحظ المحلفون أنها لم تُستَدع كشاهدة إثباتٍ أساسية لصالحها — إذ اكتمل الأمر من دونها — لكنني أعتقد أن استجوابي لها ربما يكون في صالح المُدَّعى عليهم، أقصد أصحاب شركة السكة الحديدية المحترمة الذين أشرُف بتمثيلهم.»

بدا أن واحدًا أو اثنين من المُحلفين مالا إلى الامتعاض من هذا الهجوم على المُدعية، وبدا أنهما عدَّاه محاولةً لجعل حُكمهما بعيدًا عن النزاهة والتجرُّد. كان السيد سرجينت بيردلايم يتوق إلى أن تُتاح له الفرصة، أو يتفجع على عدم امتلاكه الفرصة، كون الشركة لم تَستَدْع أي شهود، للرد على ما كان سيُسميه هجومًا جائرًا وعديم الضمير للغاية على سيدةٍ لا تشوب سمعتها شائبة.

لخَّص القاضي الأدلة، واستدار المُحلفون، وأخذوا دقيقتين للتشاور في مقصورتهم، ثم حكموا لصالح المُدعية الجميلة بمبلغ ٢٥٠ جنيهًا إسترلينيًّا، قيمة الملابس والمجوهرات الضائعة.

سيطر شعورٌ بعدم الرِّضا على مُحامي الشركة، مع أنه، على حدِّ قوله، لم يعرف كيف كان من الممكن أن يحكم المُحلفون بأي حُكمٍ آخر. وراح يؤكد بشدة أن مال موكليه قد سُلِب بالاحتيال، واشتبه في أن تكون الآنسة إيلين ويلكينسون عضوةً في جماعةٍ من المُتآمرين. فقد قال في همسٍ مسموعٍ للسيد لينكس، عندما كان ذلك السيد يُعيد صياغة مذكرة الدعوى مذيلةً بنتيجة المحاكمة لتقديمها إلى الشركة: «إنه عمل تلك العصابة يا سيدي، ثِق في هذا.»

لم تدفع شركة السكة الحديدية المال. فقد نجح مالِكوها في تقديم دوافع قانونية وجيهة بناءً على إفاداتٍ خطية قوية بما يكفي لإقناع القضاة بالموافقة على «أمرٍ شَرْطي»، مُطالِبين المُدعية بإظهار سببٍ يمنع من إقامة محاكمة جديدة في القضية. ظهرت تلك الحجةُ في صورة استدعاءٍ آخر قُدِّم إلى المحكمة لجعل ذلك الأمر الشَّرْطي الذي يستلزم محاكمةً جديدةً أمرًا لا مناصَ منه، وهكذا أُتيح للمُدَّعى عليهم ثلاثة أسابيع تقريبًا ليبدءوا تحقيقاتهم.

بدأت كل أقسام التحقيق في الشركة في العمل، لكن لم تُحقق أي نجاح. بعد ذلك استُؤجرت خدماتي، ولم يكن لديَّ أدنى شك، في اعتقادي الشخصي، أنني سأتمكن من كشف لُغز ذلك الأمر، الذي أدركتُ في الحال كذلك أنه كان احتيالًا، لكنني لم أكن أتوقَّع أن تكون المهمة بهذه السهولة الكبيرة التي وجدتُها عليها. لكنني برغم ذلك أنقذتُ خزينة أموال الشركة من الابتزاز القانوني الذي مارَسَه المتآمِرون، وكشفتُ لغزًا، رغم هروب الحقراء الذين ارتكبوا الجريمة.

لقد أصاب مَن وصف النساء بأنهن مُفسِدات للمؤامرة. إن هذا صحيحٌ جدًّا من ناحية المعنى المباشر، لكنه صحيحٌ أيضًا بمعناه غير المباشر. لقد أحبط تأثيرُ الغيرة الكثيرَ من مُخططات العصابة التي تنتمي لها هذه المُحتالةُ المسرحية؛ إذ أصبحنا نملك الحرية الآن للاعتراف بأنها كذلك. ولا بدَّ أن ننسب الفضل إلى هذا الدافع، ولكن في مناسبةٍ أخرى، في اكتشاف ومعاقبة العديد من أعضاء العصابة البارزين. وإن المجتمع لَمدينٌ بالشُّكر لهذا الدافع في القضاء التام، منذ ما يقرُب من ثلاث سنوات، على تلك المؤامرة البغيضة.

كان للآنسة ويلكينسون مُعجبان من بين المُتآمِرين، وكان كلٌّ منهما على علمٍ بهذا الاحتيال. لقد دبَّر أحدهما، وهو يتألَّم من أثر رفضِها إيَّاه، خطةً لخيانة غريمه ومحبوبته القاسية، وذلك عندما اكتشف أنني تولَّيتُ القضية، وقابلني. وعندما نال وعدًا بضمان سلامته الشخصية، كشف لي الخطة. لقد قصَّ عليَّ، بالتفصيل، كيف اقتُرض المالُ من

الشخص الغنيِّ بين المُتآمِرين لشراء المجوهرات والملابس؛ وكيف أُعِدَّت المكيدة؛ وكيف نُفِّذَت. لقد كشف لي أن العمل في مسرح مدينة بي … كان وسيلةً لإعطاء بدايةِ الاحتيال مظهرًا صادقًا، وأن الجناح قد استُؤجر في الفندق لضمان الحصول على شهادةٍ مُستقلة، وأن الجلبة التي أُثيرت حول حَزْم الأمتعة لم تكن سوى مُناورة بارعة صغيرة لحشد شهودٍ أمناء آخرين في المكيدة؛ وأن كل نقطة تفصيلية، حتى فيما يخصُّ المغادرة من دون إفطار، لم تكن سوى مرحلة من مراحل الخداع، وكانت في المرحلة الأخيرة ذريعة يُفسَّر بها تركُ رصيف المحطة والذهابُ إلى المقصف؛ مع إبقاء عربة الحارس تحت المراقبة طوال الوقت، تلك العربة التي شهدت الانتصار الواضح لتلك «الضربة الموفَّقة»، وكان هو جاهزًا للتعامُل مع أي حادثٍ طارئ.

لا شيء أسهل من حل «عقدة» المسرحية. كانت لحظة وصول ذلك القطار السريع، الدقيق دائمًا في مواعيده، معروفة. انطلقت عربة أجرة إلى المحطة عند وصول القطار. ترجَّل منها رجلٌ، بدا بمظهر السادة، واندمج بين حشد المسافرين الذين كانوا يبحثون حقًّا عن أمتعتهم.

قابل رجُلًا آخر كان قد دخل المحطة على قدَميه، وبعدما صافح ذلك الرجلُ زميلَه سريعًا، ركب معه عربة الأجرة نفسها. طالب أحدُ اللِّصَّين بالحصول على الصناديق التي تحتوي على الثياب والمجوهرات في خضم ذلك الهرَج. كانت الممثلة — التي كانت، من دون شك، على علمٍ بالاتفاق — ترى كل هذا. لو كان الحارس علِم وتذكَّر بأي طريقةٍ أن سيدةً هي التي عهدت إليه بالصناديق، أو لو كان أيُّ حدَثٍ عارِضٍ أقنعَ مُوظفي الشركة بضرورة التحقُّق من حق الرجل في أخذ الصناديق، لكانت الآنسة ويلكينسون ستخرج من المقصف، وتوضح أن هذا السيد إنما هو زوجها، وكانت ستغادر معه هو والممتلكات في عربة الأجرة.

كانت المؤامرة في هذه الحالة ستُحبَط — وهو أمرٌ كان سيُثير الغيظ والإزعاج بدرجةٍ كبيرة في نفوس اللصوص — لكن هذا كان سيصبح هو حجم الأذى الذي كانوا سيتحسَّرون من أجله لا محالة. لم تقع مثل هذه الكارثة. رأت السيدة الصناديقَ وصديقيها يخرجون من المحطة في العربة. فأتمَّت التهام كعكعتها، وعندما اعتقدَت أن شريكيها أصبحا بعيدًا عن متناول أيدي رجال الشرطة، بدأت تسأل الحمَّالين عن أمتعتها.

كانت نهاية هذه القصة، فيما أعتقد، ستصبح مُرضيةً أكثر مما هي عليه في الواقع، لو كان بإمكاني أن أُخبر القارئ أن الحقيرين المُتورِّطين في المؤامرة نالوا ما يستحقون

من العقاب. لكن الحقيقة لا تُجيز لي قول هذا. بالعكس، لقد علِمَت السيدة ومحبوبها الأثير، بطريقة ما، أن خيانةً قد حدثت داخل العصابة، لذا انسحبا من النزاع القانوني، واختبآ لفترة. عندما قُدِّم استدعاءٌ في محكمة كوينز بينش لجعل المحاكمة الجديدة أمرًا قطعيًّا يقتضي التنفيذ، لم يُدافع السيد سرجينت بيردلايم ولا أيُّ رجلٍ آخر، يرتدي روب المحاماة، عن المُدَّعية. وهكذا نجت الشركة من ابتزاز التعويض ونفقات الدعوى؛ لكنَّ حق العدالة في تسليم الآنسة ويلكينسون وعشيقها المجهول للسجن مع الأشغال الشاقة لمدة بضعة أعوامٍ سُلِب منها بالاحتيال.

الفصل الرابع

بوليصة التأمين على حياة السيدة فيتزجيرالد

ذات يوم طُلب منِّي أن أزور شركة «أنيمبيشابل إنشورانس» للتأمين، التي كان مكتبها في هذا الوقت في ويست ستراند، بلندن. أثناء مقابلةٍ مع السيد بلاند، المدير والسكرتير، وضع أمامي رسالةً كان قد تلقَّاها قبل ستة أشهرٍ تقريبًا من سيدٍ من مدينة دبلن يُدعى مكجراث، تحمل طلبًا لشغل منصب وكيل الشركة في إيرلندا.

قال المدير: «كان لديَّ في هذا الوقت شيءٌ من النفور من نصيحة مجلس الإدارة بقبولِ هذا العرْض؛ إذ كنتُ على علمٍ بأن عددًا من مكاتب الشركات قد سُرِق عن طريق عقود تأمين احتيالية من الجزيرة الشقيقة.» واصل مُحدِّثي كلامه قائلًا: «كان نطاق عمليات الاحتيال التي ارتُكبت هذه كبيرًا جدًّا حتى إنَّ عدةَ مكاتب في لندن قرَّرَت أنها، وتحت كل الظروف، سترفض العمل القادم من إيرلندا. لكن، لَمَّا كان مكتب شركتي ناشئًا، رأيتُ أننا لم نكن نتحمِل أن نُضيع أيَّ أملٍ معقولٍ في الحصول على عميل، وعليه أحَلْتُ الرسالة إلى مجلس الإدارة، وكانت النتيجة أن عُيِّن المُتقدِّم للوظيفة في الحال.»

سُلِّمت الرسالة لي. كانت في جوهرها تزعم أن كاتبها سمسار عقاري ذو خبرةٍ كبيرةٍ جدًّا، وأنه يستطيع أن يجلب للشركة عقودًا تأمينية كثيرة جدًّا من أفضل الأشخاص. يُمكِنني القول أيضًا إنه كان ثَمَّةَ عنوانٌ مطبوعٌ في أعلى الرسالة، وكان مكتوبًا أيضًا «تأسَّست عام ١٧٩٥.»

قال المدير: «ها هي ذي نسخة من رسالتي التي رددتُ بها، متضمنة مذكرة من مجلس الإدارة، وها هي نسخة من خطاب قَبول الوكيل للوظيفة.» ثم أكمل قائلًا: «بعد ثلاثة أسابيع من تاريخ الرسالة الأخيرة التي أطلعتُك عليها، تلَقَّينا منه طلبًا للتأمين على

حياة سيدةٍ تبلغ من العمر ٥٦ سنة، بقيمة ٣٠٠٠ جنيه إسترليني. تَصادَف أن وصل هذا الطلب — لسوء الحظ، أعتقد أن بإمكاني قول هذا — أثناء غيابي المؤقَّت عن المكتب لأسبابٍ مَرضية. لقد أرسل وكيلنا للاستعلام عمَّا يجب عليه أن يفعله؛ إذ كان مستشار السيدة الطبي الخاص هو مستشارنا الطبي المحلي. كان وكيلُنا هو الذي عيَّن هذا الرجل في تلك الوظيفة، وذلك بموجب تفويضٍ عام مِنَّا لاختيار رجلٍ محترمٍ مائة بالمائة ليقوم بدور مستشارنا الطبي في مدينة دبلن. كان ردُّنا أنه بما أننا واثقون من أنه كان حريصًا على اختيار مستشارٍ طبي كُفْءٍ للعمل، فليس ثَمَّ اعتراضٌ على تقريره بشأن المسألة. وبناء على ذلك حُوِّلَت الأوراق المعتادة إلى لندن، ووُضعت أمام مُوظفنا الطبي الرئيسي ليفحصها.»

واصل مرشدي كلامه قائلًا: «كان موظفنا الطبي الرئيسي رجلًا بارزًا جدًّا، إذ كان مُتخصصًا فيسولوجيًّا شهيرًا، بينما عرفتُ عنه مهارته الشخصية في تشخيص الأمراض، ووزنه في مجال الكتابة، في مناسباتٍ عديدة سابقة. حسنٌ، لقد فحص الأوراق فحصًا دقيقًا، وخاصةً التقرير الطبي الإيرلندي، الذي أعددتُ لك نسخةً منه. سوف تلاحظ أنه يصف السيدة فيه بأنها في صحةٍ جيدةٍ جدًّا، وأن بِنيتها الجسدية جيدة، وأنه بالنظر إلى عاداتها وأسلوبها في الحياة لا يُوجَد ملابسات من شأنها أن تُقصِّر من مدة حياتها. دُفع قسطٌ بقيمة نصف عامٍ عند توقيع عقد التأمين. وتمَّ تحويل المال الذي تسلَّمه وكيلُنا في الحال إلى لندن بشيكٍ مصرفيٍّ، و... عند ذلك الحد، انتهى الأمر.

عندما عُدتُ إلى مكتبي طلبتُ من كاتبنا أن يُريني سجل بوالص التأمين، ووُضعَت أمامي الأوراق المتعلقة بجميع الأعمال المهمة التي أُجريت أثناء غيابي. أثناء إلقائي نظرةً سريعة على أعمدة «سجل بوالص التأمين»، لفت انتباهي القيمةُ «٣٠٠٠ جنيه إسترليني»، وكلمة «دبلن». كنتُ متفاجئًا بعض الشيء من تلقي مثل هذا الطلب الضخم القيمة من هذه الوكالة التي تُمثل شركتنا، في المرة الأولى، ومن عدم تلقِّينا أي عملٍ آخر حتى هذه اللحظة من تلك الجهة. لكن الأوراق سَكَّنت ثورة شكوكي. لم يكن ثَمَّةَ شيءٌ أكثر إقناعًا من التقرير الطبي، والإجابات التي أجابها صديقا السيدة المُؤمَّن عليها. ولم يكن المقدار الذي تعزَّزت به ثقتي قليلًا عندما فكرتُ في المقدرة والخبرة العظيمتين لمُوظفنا الطبي في لندن.»

واصل المدير كلامه قائلًا: «يجدُر بي أن ألفت انتباهك إلى حقيقة أن عقد التأمين على حياة السيدة هذا قد نُفِّذ من أجل مصلحتها الخاصة. فالطلب ينصُّ بوضوحٍ على

أنه ما من شخصٍ آخر مُهتمٌ بهذه السيدة. أرجو أن تتكرم بجعل هذه الحقيقة مفتاح تحقيقك.» وأضاف: «والآن، لدَينا ما لا أستطيع أن أمنع نفسي من اعتباره دليلًا واضحًا في حدِّ ذاته على وجود احتيال. لم ينقضِ سوى أربعة أشهرٍ منذ إرسال طلب التأمين هذا إلينا، والآن يُوجَد من يُطالبنا بمبلغ ٣٠٠٠ جنيه إسترليني. إنني مُرتابٌ غاية الارتياب في وجود احتيالٍ في هذه القضية.»

بعدما استمعتُ إلى هذه التعليمات، وأخذتُ الأوراق التي كانت قد أُعِدَّت بحكمةٍ كبيرةٍ لتكون مُرشدًا لي، انطلقتُ إلى مدينة دبلن، لأُجري تحقيقًا في الملابسات. لو كانت القضية عينةً واضحةً لما يحدث لشركات التأمين على الحياةِ بوجهٍ عام بسبب أعمالها في إيرلندا، يمكنني أن أفهم بسهولةٍ كيف يتصادف، كما أخبرني مدير مكتبي، رغم كل الحذر الذي يتوخَّونه في اختيار الأرواح التي يؤمِّنون عليها، ورفض الحالات التي يُكتشف أن فيها أدنى درجةٍ من اعتلال الصحة، أو التأمين على أولئك الذين يُقبَلون فقط بمعدل قسطٍ إضافي — والتأمين عليهم بأكبر من أعمارهم الحقيقية بخمس، أو عشر سنوات، أو خمس عشرة سنة، تبعًا للظروف — أن يتجاوز معدل الوفاة بين الأشخاص المؤمَّن على حياتهم متوسط معدل الوفيات في الدولة كلها، مثلما يوضح رئيس مكتب السجل العام، ذلك السجل الذي ينطوي تحت المعدلات المتوسطة فيه رجالٌ ونساءٌ يُمارسون أكثر أنواع الوظائف ضررًا، ويعيشون تحت ظروفٍ تتعارَض تمام التعارُض مع طول العمر.

أجريت تحقيقاتي سرًّا، بالطبع، لبعض الوقت. لم تقدِّم لي الشرطة، التي تواصلتُ معها، أي مساعدة، وبدا أنهم لم يُحبُّوا فكرة أن يُوظَّف رجلٌ إنجليزي فيما ربما كانوا يعتبرونه مُهمَّتهم. لستُ واثقًا البتة أنهم بقوا مُخلصين لي. ولديَّ، من ناحيةٍ أخرى، شك في أن بعض الضباط، الذين أصبحوا على دراية بالمهمة التي كنتُ بصددها، قد أفشوا هدفها في مكانٍ ما، ومن خلال هذا المكان انتقلت المعلومة إلى آذان المُتواطئين في هذه العملية الاحتيالية. لكنني برغم هذا، ومن دون أن أسمح — في حدود علمي — لمخلوقٍ، غير الشرطة، بمعرفة عملي، تأكدتُ أن امرأةً في عُمر المؤمَّن عليها، وشبيهة بها من نواحٍ أخرى، قد تُوفِّيت في اليوم المُحدَّد في العنوان المذكور؛ وأن الطبيب الذي يعمل مُستشارًا طبيًّا لحساب شركة التأمين في مدينة دبلن قد زارها؛ وأنه، بحسب الظاهر، وبقدْر ما تقدَّمتُ في البحث حتى تلك اللحظة، لم يكن ثَمَّةَ ما يُشير إلى وجود احتيال.

لقد أبلغتُ بهذه التحقيقات ونتيجتها الظاهرية السيد بلاند، سكرتير الشركة ومديرها، لكنني أضفتُ أن الرأي الذي رسَّخه في عقلي لا يزال موجودًا. لم أستطع أن أقول إنه لم يضعُف، لكنه بالطبع لم يتلاشَ.

تطلَّب انتباهي في هذا الوقتِ أمرٌ آخَر مُلِحٌّ للغاية. فقد علمتُ أنه بموجب شرطٍ من شروط عقد التأمين، لم يكن المكتبُ مُلزَمًا بدفع المبلغ لمدة ستة أشهر، على أن يدفعه بعد ذلك فقط للمُمثل القانوني للمُتوفَّاة. لقد علمتُ أنه، حتى اللحظة الراهنة، لم يتقدم أيُّ وصي لإثبات وجود وصية، وأنه ما من أحدٍ قدَّم طلبًا للحصول على أوراق إدارة أملاك المُتوفاة. لذا التمستُ من مُوظِّفيَّ إذنًا بالعودة إلى إنجلترا — بعد اتخاذ خطوةٍ أو خطوتَين إضافيتَين، نصحتُ باتخاذهما — والرجوع إلى مدينة دبلن بعد شهرٍ أو شهرين. وقد وافقوا على هذا. لكنني قبل المغادرة، ارتأيتُ أن بإمكاني أن أتخذ خطوةً أخرى في القضية.

بعد ذلك نهجتُ نهجًا علنيًّا في التحقيق بهدف دفع مُرتكبي جريمة الاحتيال — إذا كان الأمر احتيالًا — للتخلِّي عن حذرِهم. لقد أمرتُ بنقل حقيبة سفري إلى المحطة، وكأنني على وشك الرجوع إلى إنجلترا في القطار والسفينة التاليين. وبعدما وُضعَت وديعةً في الفندق لبضع ساعات، غيرتُ رأيي، وأمرتُ بنقلِها إلى فندقٍ آخر، حيث حرصتُ على الوصول في الوقت نفسه الذي وصل فيه عددٌ من المسافرين القادِمين من مدينة كينجستون. بعد تناول بعض المُرطبات ووجبة خفيفة، للحفاظ على، أو بالأحرى لإسقاط، الستار، أخذتني عربةٌ إلى مكتب وكيل الشركة. استقبلني هذا السيد بهيئةٍ تدلُّ دلالةً راسخة على أنه رجلٌ أمين. لقد قال إن الصفقة كانت مشئومة، وإنه ندِم عليها بشدة. لو أن حظه مع الوكالة كان سعيدًا كما كان يتوقَّعه، ولو أنه أرسل إلى الشركة عددًا من الطلبات، بحيث كان ربح «الصفقات الجيدة» عوَّض، إلى حدٍّ ما، عن الخسارة التي سببتها هذه العميلة سريعًا، ما كان سيكترث كثيرًا هكذا.

غير أنه، بسبب الأمر الواقع، كان يعتزم جديًّا أن يستقيل من الوكالة. كانت نيته هذه ثقيلة الوطأة عليَّ. لقد بدت كالقول إن لعبتي مع مكتب الشركة انتهت. ثارت شكوكي. لكنني، لنزع فتيل شكوكه فيَّ، قلتُ، في الواقع، إنني أستطيع أن أتفهم مشاعره. كانت القضية، بالطبع، مزعجةً لشركة التأمين، لكن مع أن المديرين كانوا مُغتاظين قليلًا، ومُتلهفين لمزيدٍ من المعلومات عن الموضوع، اعتقدتُ، على الرغم من ذلك، أنه لم يكن ثَمَّةَ حيلة. إن عليَّ، بصفتي موظف الشركة، وبصفتي مأمورًا بالتحقيق في القضية، أن أُعِدَّ تقريري، وبعد ذلك سوف يُدفع المالُ من دون شك. عندما اقتربتُ من نهاية هذا الحديث، بدأت أتصفَّح ملامح الرجل بدقَّة وجدية، بينما رحتُ أتكلم بنبراتٍ تصنعتُ بها اللامبالاة.

كان هادئًا هدوءًا عجيبًا، لكنني ارتأيتُ أني اكتشفتُ ومضةَ ارتياحٍ تسري على ملامحه عندما توقَّع تسويةً سهلةً للأمر. عند ذلك طلب منِّي أن أتناول العشاء معه، وهو ما وافقتُ عليه، وقضيتُ بقية الليلة معه.

لم يحدُث أي شيءٍ آخر في ذلك اليوم. في وقتٍ مبكرٍ بعض الشيء عُدتُ إلى فندقي، بحجَّة الإعياء. وفي صباح اليوم التالي، كما كان مُقررًا، ذهبت أنا والسيد الوكيل لزيارة الطبيب والمُحقِّقَين اللذين راجعا أوراق المُتوفَّاة.

في هذا المكان لم نكتشف شيئًا. ردَّد الصديقان الدهشة التي أبداها الوكيل من الوفاة المفاجئة لسيدةٍ كان كلٌّ منهما، قبل أربعة أشهر، مُستعدًّا للمُراهنة بمبلغٍ ضخمٍ من المال على أنها ستعيش حياةً مديدة.

كان الطبيب مندهشًا بالقدر نفسه من الوفاة غير المتوقعة — بعد مرضٍ استمرَّ مدة يومَين — لامرأةٍ كان متأكدًا أنها كانت ستستمتع بأيامٍ أكثر بكثيرٍ من الأيام التي تقول الخبرةُ إنها مقدورةٌ للناس ممَّن هم في مثل عمرها. اعترفتُ بأنني اقتنعت، وقلتُ إنني سأنقل اقتناعي هذا، وغادرتُ إيرلندا في اليوم التالي.

كان الوكيل، والصديقان، والطبيب، وشخصٌ آخر، من دون شك، مُبتهِجين غاية الابتهاج باحتمالية الحصول على ٣٠٠٠ جنيه إسترليني من المُساهمين الإنجليز في شركة التأمين.

أوفيتُ بوعدي لمعارفي الإيرلنديين، وأبلغتُ بإخلاصٍ فحوى مُقابلاتي معهم؛ لكنني أضفتُ إلى تلك القصة كذلك تعبيري عن اعتقادي القوي بعضَ الشيء في أن القضية — رغم أن الغموض يكتنِفها — قد شابها الاحتيال، ونصحتُ بضرورة إجراء تحقيقٍ صارم، قبل دفع المال.

بعد ذلك بوقتٍ قصير، كما عرفتُ، ثبت وجود وصية للمُتوفَّاة، مكتوبة بالصيغة المطلوبة، ورفع منفذُ الوصية دعوى (أُرسل إخطارٌ بها للمكتب بالفعل) ضد شركة التأمين. كان مُنفذ الوصية هذا أيضًا هو وريث المؤمَّن عليها حسب الوصية. نُسخت الوثيقة من إحدى النماذج السابقة الرائجة، وكانت توصي لإدوارد أوهالوران بالتركة كلها، العقارية والشخصية، التي تركتها المُوصِية. كان من الجدير بالملاحظة؛ بقدرٍ غير قليل — هكذا اعتقد السيد بلاند، وكذلك أنا — أنَّ الشاهدَين اللذين أقسما على صحة هذه الوثيقة كانا هما المُحقِّقَين اللذين يعملان لحساب شركة التأمين؛ أعني الشخصَين اللذَين قدَّما، قبل أربعة أشهرٍ من وفاتها، تقريرًا إيجابيًّا للغاية عن صحة المُتوفَّاة وعاداتها.

ولولا هذا لدفعَتِ الشركة المال؛ لأن تقريري عن الحالة لم يكشف بشكلٍ مؤكدٍ عن أي مُبررٍ قانوني لرفضِ دفع المال.

بعد ثلاثة أشهرٍ تقريبًا من زيارتي الأولى إلى دبلن، بخصوص هذه المهمة، عدتُ إلى هناك لاستئناف تحقيقاتي. كان لا بدَّ من تغيير أساليبي. لم يعُد يُجدي أيَّ نفعٍ أن أتظاهر من جانبي بالثقة في عدالة دعوى المُطالَبة بمبلغ التأمين. كان عليَّ أن أُخبر الوكيل أنَّ معلوماتٍ قد بلغتِ الشركةَ عن الموضوع جعلَتها تَشتبه في وجود احتيال، وأن أقول إنني أُمرتُ بسَبْر أغوار القضية. تظاهر الوكيل بسبب ذلك بأن براءته قد أُهينت؛ وهو ما فسَّرْتُه أنا بأنه علامة من علامات الخوف. لو كان بإمكاني التوصل إلى تفاهمٍ مع هذا المُحتال، فليس عندي أدنى شكٍّ أنني كنت سأحصل على اعترافٍ كاملٍ منه؛ لكنه كان سيصبح عملًا مجردًا من المبادئ الخُلُقية أن أدخل في اتفاقٍ مع الرجل الذي، في اعتقادي، انتهك المسئولية المنوطة به باعتباره مُمثلًا للشركة. لم يحدث أيُّ شيءٍ بيننا سوى أن سألتُه السؤال الرسمي عما إذا كان لديه أي تفسيرٍ لاشتراكه في الصفقة، واستخرجتُ منه إجابةً مفادها أنه بالتأكيد ليس لديه تفسير.

واصلتُ تحقيقاتي على مدى أسبوعين، ولَمَّا كنتُ لا أرغب في أن أتباهى بامتلاكِ مهارةٍ ليست لي، يمكنني أن أعترف بأنني لم أحصُل على أي معلوماتٍ من شأنها حمايةُ جيوب المساهمين في شركة التأمين. لقد علمتُ أن إدوارد أوهالوران، ابن أخي المُتوفاة، كان كاتبًا عند أحد المحامين، ورجلًا أخبرني رجال الشرطة أنهم ظلوا يراقبونه طويلًا؛ ذلك لأنه لم يكن لديه وسيلةٌ جليَّةٌ للرزق؛ رغم أنه كان يعيش حياة أكثر رفاهية وإسرافًا ممَّا كان عليه من قبلُ عندما كان في وظيفةٍ دائمة. كان الشاهدان على الوصية رجُلَين مُحترَمين. وكان الطبيب فوق مستوى الشبهات. أما الوكيل فكان رجلًا يتكلَّم عنه الناس بازدراء، لكن سجلات الجريمة لم تشتمل على اسمه قط، ولا عدَّته الشرطةُ من الرجال الذين يُحتمَل أن يرتكبوا جريمةً من الجرائم التي يُعاقِب عليها القانون.

أعترف أنني كنتُ في حيرةٍ من أمري. وأخيرًا، ولَمَّا لم أكن مُقيدًا بوقتٍ إلى حدٍّ كبير، ولم أكن مُقيدًا البتة فيما يخص النفقات، قررتُ أن أصب اهتمامي على السيد أوهالوران. كان لي صديقٌ داهيةٌ في لندن، وهو من أبناء الجزيرة الشقيقة الأصليين، فأرسلتُ له كي يأتي ويُحضِر زوجته معه. لقد تأكدتُ من وجود سيدةٍ تُدعى السيدة أوهالوران، أو بالأحرى سيدة تحمل ذلك اللقب، لكن لم يكن لها حقٌّ بمُوجَب هذا اللقب. لقد حاز ابن أخي المتوفاة مسكنَ عمته السابق، والغُرَفَ المُعدة للإيجار. ربما كان هذا ستارًا،

أو ربما كان أمرًا ضروريًّا. لقد ظلَّت المُتوفاةُ تفعل الأمرَ نفسَه حتى ستة أشهر قبل وفاتها، لكنها وجدت أن مهمة خدمة مُستأجري الغُرَف كان مُضجِرًا جدًّا لدرجة أنها أخطرتهم بضرورة إخلاء الغُرَف. تصادَف أن كانت السيدة أوهالوران المزعومة امرأةً مُختالةً متهوِّرةً، ثرثارةً ونزَّاعةً إلى الانتقام. واعتقدتُ أنني بمساعدةِ صديقي كونروي وزوجته السيدة كونروي — التي كانت رشيقةً قصيرة القامة، مُتَّقِدة الذكاءً، وماهرةً وقليلة الكلام — سوف أتمكن، خلال فترةٍ قصيرةٍ للغاية من الوقت، من اكتشاف إنْ كانت تلك الدعوى المقامة ضدَّ الشركة مَبنيةً على حقٍّ أم لا.

وصل كونروي وزوجته في الحال، وانسحبتُ من مدينة دبلن، كما اتفقنا. ولُوحِظ غيابي. ظنَّ أوهالوران، وآخرون، أنهم قهروني تمامًا، وابتهجوا للغاية، ربما يُمكنني القول إنهم قد تهوَّروا وتخلَّوا عن حذرِهم. فقد أرسل محامٍ، يُدعى أوكافاناج، تمَّ توكيله لإقامة الدعوى للمطالبة بالتأمين، رسالةً تتوقَّد لغتُها سُخطًا، أرسلها إلى مكتب شركة التأمين، يتذمَّر فيها من الشك الجائر وغير المُبرَّر في موكِّله، ويُهدد، بناءً على ذلك، بأنه إذا لم يُدفَع مبلغ الـ ٣٠٠٠ جنيه إسترليني كاملًا في اليوم المُتَّفَق عليه للدفع، فسوف يُقيم الدعوى، دون تأخيرٍ، أو مزيدِ إنذارٍ، لاسترداد المال، وفضح السلوك الشائن للشركة. سلَّم السيد بلاند هذه الرسالة إلى السادة أولدبوي، وبيرسي، وتويتشيم، مُحامي الشركة، الذين أبلغوه، في ردٍّ مقتضب، بتسلُّمهم إيَّاها، وقالوا إنهم سينتظرون رسالته التالية عن الموضوع. رأيتُ أن من المُستحسَن الرجوع إلى لندن؛ لأنني تخيلتُ بشكلٍ ما أن أحدًا ما سوف يُبلِغ أوهالوران بوجودي هنا في مكتبي، وسوف يُبعده هذا أكثر عن حذَره.

عند وصول كونروي وزوجته إلى دبلن نزلا في فندقٍ مُتواضعٍ بعض الشيء، حيث أشاع أنه بعدما ادَّخَر قليلًا من المال من إحدى الوظائف في مدينة مانشيستر، كان ينوي أن يبدأ عملًا صغيرًا في دبلن. وكي يتجنَّب المصروفات، رأى أن من المُستحسن أن يستأجر غرفةً خاصَّة في أحد المنازل ريثما يتفقَّد الأحوال في المدينة. كان لدى مُضيفتي ابنٌ شابٌّ بليد؛ هل ستجعله فقط يمضي ويُري كونروي أين يمكنه البحثُ عن نوع الغرفة التي يريدها، مع توقُّعٍ معقول أن يجداها؟ لقد انقضى وقتٌ طويلٌ على خروجه من دبلن، حتى إنه نسي موطنه الأصلي تقريبًا.

كانت كريمةً للغاية، كما كان ينبغي لأي أحدٍ أن يكون، مع شخصَين لطيفَين مثل السيد والسيدة كونروي. كان صديقي الداهية يقود الصبي، بينما يتظاهر بأن الصبيَّ هو الذي يقوده، حتى وصلوا إلى منزل أوهالوران، حيث وجد الغرفة التي أرادها. كانت

الغرفة، في اعتقاده، مناسبةً تمامًا، لكنه بشيءٍ من الحذَر رفضَ أن يستأجرها، مع أنها كانت لا بأس بها؛ وبالتأكيد، أسعده أن يقول إنَّ السعر، إذا أنقصَتْه السيدة أوهالوران فقط بمقدار شلنٍ في الأسبوع، ما كان ليُصبح مرتفعًا على الإطلاق. كانت السيدة كونروي في الفندق، وكانت ستأتي مباشرةً لرؤية الغرفة. وقد فعلَت. وبعد نزاع صغيرٍ حول السعر بين السيدتين، «توصلَّتا إلى حلٍّ وسط.» فأنقصت السيدة أوهالوران ستة بنساتٍ أسبوعيًّا من قيمة الإيجار، وسُكنت الغرفة في ذلك اليوم.

لا شكَّ أن كونروي وزوجته (التي كانت تعمل في تفتيش السيدات في أحد مخافر الشرطة) حَرَصا على الظهور بمظهرٍ لطيف مُستساغ، كما حَرَصا على الالتزام بشخصيتهما المُنتحَلة. لقد أحبَّ الرجلان، كونروي وأوهالوران، أحدهما الآخر في الحال. إن خبرتهما بالحياة والناس جعلت كلًّا منهما صديقًا مناسبًا للآخر، ولو كانت تلك هي خطة ذلك الأول، فربما يكون قد نجح في التسلل، تدريجيًّا، إلى اكتساب ثقة «وريث عمَّتِه الوحيد» كما أصبحت الزوجتان، على وجه الخصوص، ودودَتَين مع بعضهما، وفي حدودٍ ضيقةٍ وضعتْ كلٌّ منهما ثقتها في الأخرى في أول مرةٍ تُركتا وحدَهما.

رأت السيدة كونروي من الضعف الكامن في صديقتها الجديدة ما يكفي لجعلِها تسأل في هذه المرة إن كان بإمكانها أن تُمعِن في التطفُّل وتطلُب منها أن تجعل خادمتها تُحضِر لها قليلًا من الويسكي. كان لدى زوجها مايك مناقب أخذت تُثني عليها بحماسة، لكنه كان مُتحفظًا للغاية فيما يتعلق بتناول السيدات للخمور. لم يكن لدى السيدة أوهالوران مانعٌ مُحتملٌ من التفضُّل على نزيلتها بتلبية طلبها. وبينما توجَّهت الفتاةُ لإحضار الشراب، بادلتْها السيدة أوهالوران الثقة وأسرَّت إليها بقولها إن زوجها لم يكن بعيدًا عن التعقُّل في أمر تناولها الشراب، وإنها لا تملك، في الواقع، أي شيء مُحدَّد للشكوى بشأنه تعرفه — أقصد، على يقينٍ منه — لكنها كانت تشكُّ أنه كان مؤخرًا يُغازل «مخلوقةً ما».

ثَمَّةَ سِمتان بارزتان في شخصية السيد أوهالوران قد صارتا الآن محلَّ تأكيد. أرسل إليَّ كونروي رسالةً مفادها أنه ينبغي له أن «يضرب ضربته»، وأدركتُ أن الويسكي والغيرة كانا الأداتَين اللتين نوى أن يستعملهما.

لم يشكَّ أحدٌ البتة في المهمة الحقيقية للسيد والسيدة كونروي. لقد عُدَّ انسحابي هزيمةً. كان أوهالوران ورفاقه، الذين تأكَّدوا من الحصول على المال، طائشين، كما أسلفتُ؛ وخصوصًا السيد إدوارد أوهالوران. لقد رأت مُخيلتُه ٣٠٠٠ جنيه إسترليني تُجنى، ورأَتها

كذلك قابلةً للقسمة بين جماعةٍ صغيرةٍ من الناس. لقد انغمس في ملذَّاته بكل الطرُق. وكان أتعس شيءٍ أصابه هو أن رغباته قادته إلى صدامٍ مباشرٍ مع أعظم نقطة ضعفٍ عند زوجته؛ الغيرة.

سوف يُعفيني القارئُ من ضرورة الوصف التفصيلي للمناسبة والملابسات التي أقنعتِ السيدةَ المعروفة بالسيدة أوهالوران بأن تُقرِّر أن تنتقِم من النذل المدعو أوهالوران، كما لقَّبَتْه هي على نحوٍ دقيق، فيما أعتقد. سوف يكفي القول، في النُّسَخ المطبوعة للرواية، إنها رأَت بعينَي رأسِها ما أثار لدَيها تعطشًا للانتقام، وإن زجاجة الويسكي، بدلًا من أن تُعزِّيها، أزكتْ نيران غضبها. لقد أثارت السيدة كونروي حنق صديقتها إلى درجة الجنون، عندما صبَّت الأخيرةُ قصة أخطائها واحتيالات أوهالوران (التي قالت زوجته المزعومة إنها كان ينبغي أن تُرسِله إلى المنفى) في أُذُنَي مُساعدتي الماهرة.

كان كونروي، كما أسلفتُ، داهيةً. لقد صدَّق قصة المرأة السليطة السَّكرى؛ ولكي يُبقيها حليفةً له، ارتأى الآن أن من المُستحسَن اللعب على وتر مخاوفها الأنانية. فأخبرَها مَن هو وماذا يعمل في الحقيقة، وهدَّدها بتسليمها إلى الشرطة في الحال، إلا إذا أقرَّتْ بجريمتها وشهدت على شريكها؛ وهو الإجراء الذي اتخذَتْه بناءً على ذلك، بعدما أظهرتْ مقاومةً طفيفة. عند ذلك وعدَها بالعفو، ودوَّن قصة عملية الاحتيال.

كانت المكيدةُ جريئةً ومتهوِّرةً ومُتقَنةً بصورةٍ عجيبة، لكنها كانت بسيطة للغاية. لقد استمال أوهالوران، الذي لم يكن مُتمرسًا في الاحتيال، لكنه كان رجلًا ماكرًا ومُتهورًا، استمال سمسارَ المنازل الذي يمارس مهنته منذ زمنٍ بعيد، لكنه كان مُفلسًا في ذلك الوقت، كما استمال طبيبًا أنيقًا مُعوزًا، استمالهما لمَكيدته؛ ثم جنَّد عمَّته فيها. كان المُحقِّقان والشاهدان على الوصية أبرياء حين اشتركوا في المكيدة، ولم يكن، في النهاية، ثَمَّةَ بأسٌ في الصدفة التي أضفَيتُ عليها أنا والسيد بلاند الكثيرَ من الأهمية. كانت خطة المؤامرة تقضي بأن يُعيَّن مكجراث وكيلًا لشركة التأمين، وأن يُعيِّن هو الطبيبَ مُستشارًا طبيًّا للشركة، حتى لا يُفسد الخطة أيُّ طبيبٍ آخر من مدينة دبلن، وأن تُرشَّح امرأةٌ — يمكنها أن تُثبِت، من خلال المُحقِّقَين (اللذين لم يتعمَّدا الاشتراك في الاحتيال)، أن صحَّتها مثالية — للتأمين على حياتها. كانت هذه هي الطريقة التي أُعِدَّ بها طلبُ التأمين، والتي وافقَت بها الشركةُ عليه. كان ذلك سهلًا نسبيًّا. كان الجزء التالي من الخطة يتمثل في قتْل المرأة، أو إثبات أنها ماتت، عن طريق دليلٍ مُقنِع. وقد أعدَّ ذلك أيضًا عبقريةُ أوهالوران، ومُساعَدةُ المُتواطئين في الجريمة. رقدت السيدة فيتزجيرالد، عمَّته، في

فراشها، متظاهرةً بإصابتها بنوبة حُمَّى، وكان هذا الخبر وحدَه كفيلًا بإبعاد «أصدقائها» الكثيرين. ظلَّ طبيبنا يزورها بضعة أيام. وذات ليلة اختفت السيدة في الواقع. وأفاد التقرير بأنها تُوفِّيت بالحُمَّى النمشية. لقد غادرت في الحقيقة إلى مدينة ليفربول، التي أبحرت منها، أو بالأحرى أخذت الباخرة منها إلى أمريكا. ووُضعت جثةٌ أخرى في فراشها؛ كانت جثةً لامرأةٍ في مثل عمرها تقريبًا، وفي مثل حجمها وقامتها أيضًا. كيف حصلوا على هذه الجثة؟ كان الطبيب يعلَم أن امرأةً في الخامسة والخمسين من عمرها تقريبًا، كانت تُحتضَر بسبب إصابتها بالسرطان، وكانت تحت يدي أحد أطباء إحدى الجمعيات الخيرية في المدينة. رقدت السيدة فيتزجيرالد في فراشها، حينما تأكَّدوا أن العجوز الفقيرة كانت، دون أدنى شك، قريبةً من نهايتها. لحُسن الحظ ماتت السيدة فيتزجيرالد، أو فرَّت سرًّا واختفت، في غضون ساعةٍ من مغادرة الروح جسدَ ضحية الموت المروِّع المُصابة بالسرطان.

كان طبيبنا يَعرِف الحانوتي المُتعاقد على دفن الفقراء الذين ليس لهم مأوًى. ذهب سليلُ أسكوليبيوس، أو بالأحرى التلميذُ الزائفُ لفيزاليوس، ذهبَ إلى الحانوتي في حالةِ تَوقٍ شديدٍ لِمثل هذه الجُثة من أجل التشريح. كان السرطانُ مرضًا يريد أن يكتشفه في كل أشكاله. كان مُستعدًّا لدفع أي مبلغٍ مقبولٍ من أجل جثة ضحية المرض البائسة هذه. هل سيسمح له الحانوتي بأخذها في مُقابل جنيهَين؟ تذرَّع خادمُ القبور الأسودُ بالقانون، وتكلَّم بلغةٍ مُنمقةٍ عن «واجبه». هل سيرضى بثلاثة جنيهات؟ القانون و«واجبه» كانا الرد. أربعة جنيهات؟ «واجبه» كان ردَّه المُحزن. ما إن وصل السعر، في ذهن الحانوتي، إلى الحدِّ المقبول للتأمين على مخاطر مخالفة القانون، حتى تخلَّى عن اعتراضه على الصفقة الشائنة. هل سيقبل بخمسة جنيهات، من الجنيهات الإنجليزية الذهبية، كدفعةٍ مُقدَّمة؟ أذعن «واجبه» لهذه الحُجَّة الذهبية. حُمل جثمانُ المرأة التي ماتت بالسرطان إلى منزل الطبيب من أجل عملية تشريحٍ لم يخضع لها الجثمان على الإطلاق. بعد ساعةٍ من وصول ذلك الجُثمان إلى عيادة الطبيب، أخذَه أوهالوران إلى منزل عمَّتِه، ووضعه في فراشها. ومُلئ تابوتُ السيدة الفقيرة بالحجارة، ودُفِن.

وُضِع جُثمان السيدة الفقيرة في تابوت السيدة فيتزجيرالد (الذي جهَّزَه حانوتي آخر). ولمَّا كان الناس يعتقدون أن السيدة فيتزجيرالد ماتت بالحُمَّى النمشية، لم يكترِث أحدٌ بإلقاء نظرة على وجهها، باستثناء زوجة ابن أخيها المزعومة، التي، بالمناسبة، كانت

قد ساعدت في تغيير لون جلد الجثة قليلًا، من أجل المظهر فقط. وشيَّع أصدقاءُ السيدة فيتزجيرالد هذا الجثمان، ووضعوه بجانب العظام البالية لزَوجها العزيز الراحل.

هل يريد القارئ أن يعلم ماذا حدث للسيدة أوهالوران؟ لا أدري. فلم نشغل أنفسنا بها البتة بعدما حصلْنا على مثل هذه المعلومات التي كان من شأنها أن تُمكِّننا من بناء قضيةٍ كاملة. ماذا حدث للسيد مكجراث، والسيد أوهالوران، والطبيب السيئ السُّمعة؟ لا أدري.

أرسل محامو شركة التأمين — بعد وصول كونروي وزوجته الماهرة القصيرة القامة إلى لندن، وبعدما كتبتُ تقريري الإضافي — رسالةً للمحامي الإيرلندي الذي وكَّلَه أوهالوران يُخبرونه فيها أنَّ من الأفضل له، قبل أن يبدأ في اتخاذ أي إجراء، إما أن يزورهم هو بنفسه، أو يأمُر وكيله في لندن بزيارتهم. جاء مُحامي مدينة دبلن لزيارة محامي الشركة. تعمَّد السيد أوكافاناج أن يذهب في رحلةٍ من دوبلن إلى لندن، وهناك انتهى الأمر. يسألني قارئي: أما حُوكِم المُتآمرون؟ أوه، لا!

لقد أنقذ المساهمون في شركة التأمين، الثلاثة آلاف جنيه خاصَّتهم، ورَضُوا بهذا.

الفصل الخامس

إيميلي إتش ... قصة حزينة

قبل بضع سنواتٍ كلَّفني محامٍ بارز، وهو شريكٌ في مؤسَّسةٍ كبيرةٍ في مقاطعة ويست إند أوف لندن، بحلِّ ألغاز واحدةٍ من أشرس قضايا الاحتيال التي جاءت يومًا في نطاق ملاحظتي المهنية؛ والقصة التالية تتضمن الحقائق الأساسية لهذه القضية الحزينة.

كان السيد إتش ... الشريكَ الأساسي في واحدٍ من أكبر مصانع القطن في شمال إنجلترا. كانت مصانعه في إحدى المدن تُوظِّف، فيما أعتقد، حوالي ٣٠٠٠ شخص، بين رجالٍ ونساء وأطفال. كان ذائعَ الصِّيت، وكان، من دون أدنى شك، من أصحاب الملايين. كانت الأقمشة التي تنسجها أنوال مصانعه لها شُهرتها في كل أرجاء بريطانيا العُظمى، وفي جميع أنحاء العالم؛ وهو امتيازٌ، كما قيل لي، ظلَّ شركاؤه وورثتُه يتمتَّعون به. كان رجلًا فظًّا ومُتكبرًا، وقد جسَّد بشخصيته وسلوكه واحدةً من الصور الوصفية للسيدة ترولوب. كانت ثَمَّةَ شائعةٌ رائجةٌ في مُحيط بيته ومصنعه تتَّهمه بجميع أنواع الدناءة، والرذيلة الحقيرة والشهوانية. لكن دعُونا نتجاوز هذا. من المهم فقط القول إنه قبل وفاته بعدة سنوات أصبح شريكًا صامتًا في الشركة التي أسَّسها، وإنَّ الانغماس في الخمر أو المُسكرات أرسلَه إلى قبره على الأرجح مُبكرًا جدًّا عمَّا لو لم ينغمِس فيهما. عندما تُوفِّي لم يُفجَع أحدٌ لرحيله. لقد فقدَ العُمَّال صاحب عمل، لكن لَمَّا لم يتوقَّف المُحرك البخاري عن زفيره إلا يومًا واحدًا، ولم تتوقَّف الأنوال والمغازل إلا أثناء هذه الفترة القصيرة، التي عاد بعدَها كلُّ شيءٍ كما كان في السابق؛ ولَمَّا لم يتسبَّب موتُه في جعل أيِّ أحدٍ يخسَر أيَّ شيءٍ ذي قيمة، ولم يهتم أيُّ أحدٍ نهائيًّا برجلٍ عجوزٍ أناني، فقد أُنزل إلى قبره دون نصبِ تكريمٍ أو دمعةِ ولاء.

خلَّف العجوزُ صاحبُ مصنع القطن وراءه أرملةً، وبنتَين، وثروةً ضخمة، ووصيةً حُرِّرت بعناية. وهذه الوصية تستحق الذكر. فقد كانت وثيقةً مميزةً بعض الشيء. لقد ألَّفَها عقلُ الرجل العجوز وعقلُ أفضل أصدقائه — إذا كان يمكن القول إنه كان له أي أصدقاء — وصاغها «بترتيبٍ وعلى نحوٍ مُنمق»، كما اعتاد هو أن يقول، السيد بي ....، مُحاميه، الذي كان، في الحقيقة، قد استعان بمحامٍ ماهر من مُحامي المحاكم العُليا لإنجاز هذه المهمة.

مُنح كلٌّ من الأرملة والبنتَين مبلغًا كبيرًا من المال، وكان لكلٍّ واحدةٍ منهنَّ الحرية في فعل ما تشاء به. وتُرك لكلٍّ منهن معاشٌ سنوي؛ وكان مبلغًا وافرًا نسبيًّا للأرملة، ومبلغًا صغيرًا نسبيًّا لكل واحدةٍ من البنتين. وكانت هذه المعاشاتُ مُحصَّنة تمامًا لدرجة أنه لم يكن أي زوجٍ قد تقترن به أيٌّ منهن له سلطة على دخلِها، ولم يكن ذلك الدخل ليُصبح عُرضةً لديونه أو التزاماته؛ ولم يكن يمكن للراتب السنوي (الذي يُصرَف رُبع سنوي) أن يُرهَن أو يُصرَف قبل موعد الاستحقاق. وبخلاف ذلك، انتقل مبلغٌ كبيرٌ من المال، وهو جزء من بقية التركة، تحت تصرُّف أوصياء لصالح الفتاتَين.

منحت الوصية، التي أثبتها مُنفذوها، أوسعَ نطاقٍ من الصلاحيات فيما يخصُّ توزيع هذه المواريث، لكن قيل لي إن رسائل، أو أوراق وصائية من نوعٍ ما، تُعبر عن آراء المُوصِي، قد أُعطيت للأوصياء. بصفةٍ عامة، يُمكنني القول، إنني أُخبرتُ أنه قد طُلب من الأوصياء، في حال تزوَّجَت أيٌّ من الفتاتين «شخصًا تافهًا لا يليق بها»، أن يُعطوا الجزء الأكبر من نصيبها في بقية التركة هذه لأختها، وأن يجعلوا ما وهبوه أو أعطَوه للفتاة التي تتزوَّج بهذه الطريقة، بقدْر ما يمكنهم من الحذَر، في صورة معاشٍ سنويٍّ لها هي فقط، بعيدًا عن مُتناوَل زوجها؛ أو، في الحقيقة، أن يتصرَّفوا على نحوٍ قريب جدًّا من هذا، بحسب ما يرَونه الأفضل تبعًا لما يُمليه عليهم اجتهادهم.

دُفن الرجل العجوز على نحوٍ لائق. وأُثبتت الوصية. واستحوذ منفذو الوصية على الملكية، وحوَّلوا التركة إلى نقد؛ وبدأ الأوصياءُ يُمارِسون الجزء الأول من وظائفهم. لقد أُعلنت الوصية في حينها، وأُفهِمت الفتاتان على نحوٍ غير مباشر إلى أي مدًى أصبحتا تحت سلطة أوصيائهما.

بعد فترةٍ ليست بالطويلة من ذهاب غازل القطن العجوز لتقديم كشف حسابه الأخير، سُمِعت أرملتُه وبنتاها وهنَّ يتفجَّعن على فقدانه بعباراتٍ تستدرُّ الدموع. لم يستطعنَ أن يتحملنَ الذكريات الأليمة التي واجهْنَها في كل مكان، وفي كل مناسبة، في

المدينة، ولكي ينجون، كما زعمن، من المحنة الروحية التي يُسببها لهنَّ مَوطنُهنَّ الأصلي، قررن، عملًا بنصيحةِ أصدقاء حميمين للغاية — هكذا قُلن أيضًا — أن يُقِمنَ في العاصمة الكبرى.

قال بعضُ الحاقدين إنَّ الغرور هو الذي أخرجهنَّ من المدينة التي صُنعت فيها ثرواتُهن، وإنهنَّ أردنَ أن يُطلقنَ العنان لنزواتهن، بطريقةٍ محترمةٍ بعض الشيء، في الملذَّات المُستهترة الشائعة في لندن في ذلك الوقت، وإنَّ أُمَّهنَّ كانت على علمٍ بخطةٍ أعدَّتها الفتاتان لجذْب أزواجٍ من وسطٍ أكثر رُقيًّا من ذلك الذي في شمال إنجلترا.

إنني مُلزَمٌ أدبيًّا بالقول إن تحقيقاتي لم تقُدْني إلى أيِّ دليلٍ على صحة هذه المزاعم يكون له أثرٌ سلبيٌّ على بطلات قصتنا. لكنَّ من الحقائق المُقررة أنه في غضون بضعة أشهرٍ بعد دفن الرجل العجوز، انتقلت الأسرةُ التي خلَّفها وراءه إلى لندن، وأخذَت منزلًا أنيقَ الأثاث في منطقة كينسينجتون. إن سمسار المنازل الذي أجَّر لهنَّ البيت قد وصفه بالجوهرة؛ وكان لتغيير المنظر تأثيرٌ واضحٌ ونافعٌ على صحَّة ومعنويات الأم وبنتيها.

أحدثت الوافداتُ الجديدات «ضجةً» في كينسينجتون. كان التجَّار في حالة تأهُّب، وراحوا يجتذبون الزبونات، ويرْشون الخدَم كي يتعامَلوا معهم دون غيرهم من التجار. كان هؤلاء كُثرًا، وليس من الضروري أن أُضيف أنَّ كل ما كان يُستهلك أو يُطلَب كان يُدفَع ثمنه في الحال.

قال الخدم، الذين أسعدهم الحظ بالحصول على وظائف مع هذه العائلة، إنهن كُنَّ أفضل سيداتٍ على الإطلاق؛ ولمَّا لم يكن من السهل إرضاءُ نُزلاء المطابخ وحُجرات حفظ المؤن، فإنني أُسلِّم بأن الخدم قد لقوا عنايةً جيدة. لكن لكي لا أُرهق القارئ، يُمكنني أن أقول إن عائلة إتش ... عاشت بنمطٍ حياتي رائع، وإن كان على نطاقٍ محدود نسبيًّا؛ لدرجة أن سمعتهن؛ أعني سمعة ثروتهن، كانت موضوعًا دائمًا للتخمين والتعليق.

بعض الأشخاص الذين حضروا حفلاتهن الفخمة القليلة صدَّقوا كل تلك الشائعات المنسوبة إلى العائلة؛ لكن أشخاصًا آخرين، من غير روَّاد هذه الحفلات، كانوا يميلون إلى عدَم تصديق الشائعات المُنتشِرة عن ثروة الفتاتين؛ وحتى السيدات والسادة من الجماعة الأخيرة عُرِف عنهم أنهم كانوا يُطلقون عليهما نعوتًا من قبيل «مغرورات»، و«مختالات»، إلى آخره. بقِيَت نخبةُ بيلجرافيا وتيبورنيا بعيدًا، في شيءٍ من الريبة. فلم تكن الآنستان من سيدات المجتمع الراقي، كما أنَّ أُمهما كانت من السُّوقة في أعين هؤلاء الناس. رغم هذا

لم يكن قليلًا عددُ أولئك الناس — ممَّن يستحقون أن يُعَدُّوا من الطبقة الراقية — الذين وجدوا ما يسرُّهم على مائدة أرملة غازل القطن.

كان من بين الضيوف الأثيرين في منزل الأرملة، سيدٌ في حوالي الخامسة والعشرين من العمر. كان طويل القامة بعض الشيء، أهيف البنية، ذا بشرةٍ داكنةٍ، وشعرٍ يقترِب من الأسوَد الفاحم. كان وصف الذكاء أقلَّ من أن يصِف ملامحه. كانت ملامحه تدل على نشاطٍ عقلي وقوة. كان في عينه تعبيرٌ لم أُحِبه كثيرًا، إذ كنتُ قد رأيتُه بعد أشهرٍ قليلة من زيارته الأولى لمنزل السيدة إتش ...؛ وكان كذلك في وجهه وفمه تعابير تنمُّ عن نذالةٍ كامنةٍ في شخصيته. لقد قُلتُ هذا في أول مرةٍ وُضعَت مُنمنمةٌ للوغد بين يدَيَّ؛ وعندما تعرفتُ على الأصل، لم يَحدُث إلا أن تأكَّدَتِ انطباعاتي الأولى أو وجدَت ما يُبرِّرها.

إن مَن قابلوه في رفقةٍ قد اتفقوا تقريبًا أنه كان رفيقًا دمثًا ولطيفًا. لكن أُناسًا قليلين هم من قابلوه في منزل السيدة إتش ...؛ فدائمًا ما كانت تمنعه ارتباطاتٌ مهمةٌ من تلبية الدعوات لحضور الحفلات. فكان يُضطرُّ دائمًا تقريبًا للاعتذار عن غيابه عن هذه المناسبات، الأمر الذي كان، بالطبع، يُسبب له كثيرًا من الضيق. لكنه كان يُعوِّض غيابه عن الحفلات بحضوره الدائم إلى المنزل عندما لا يكون فيه أحدٌ غيرُ العائلة. وهكذا بات يُمضي الكثير من فتراتِ ما بعد الظهيرة معهن، الأمر الذي لاقى قبولًا واستحسانًا كبيرَين لدى الأم وبنتيها، وخصوصًا الآنسة إيميلي، الأخت الصغرى، التي كانت قد وافقت في قرارة نفسها على أن تُصبح زوجةً لهذا الرجل بعد أقل من شهرٍ من أول لقاء لها به.

كانت إيميلي شابة جميلةً صغيرة، في الحادية والعشرين من العمر، وكانت تصغُر أختها بسنتَين فقط. كانت فتاةً وقحةً ومُدَّعيةً بعض الشيء، وكانت شخصيتها تُظهِر الكثير من أفضل سِمات السلالة التي انحدرت منها، وقد أفسدَها التعليم الرديء الذي تلقَّته في المدارس الداخلية. لقد اكتسبت في هذه المدارس أخلاقياتٍ زائفة، ونزعةً عاطفيةً خطيرة، واكتسبت عادةً في الخداع برهنَت، كما تُبيِّن هذه القصةُ الحزينة، على فسادها المُطلق.

عندما عمَد هذا الخاطبُ، الذي سأدعوه الآن تشارلي إدواردز (رغم أنه ذهب إلى كينسينجتون تحت اسمٍ آخر)، إلى التودُّد إليها سرًّا، لم تأبَ عليه. كانت تعلَم أنه، وفقًا لقواعد المجتمع المهذَّب، كان ينبغي أن تتزوَّج أختها قبل أن يأتي دورُها هي؛ وكانت تعلَم أن هذا كان هو الترتيب الذي تقتضيه خطةُ أمِّها. وقد برع النذلُ الذي تتحدَّث عنه هذه القصةُ الواقعية في اتخاذ هذه الحقيقة عُذرًا وذريعةً للسرية. وبعدما نجح في جزءٍ كبير

جدًّا من خطته، رأى أن البقية سهلة. كان يعلَم ما يكفي من طبيعة النساء بحيث يعرِف أن فتاةً سخيفةً كهذه، إذا أُغويَت مرةً لكسر قانونٍ من قوانين الحياة الاجتماعية، فلن يردَعَها أيُّ تعقُّلٍ بعد ذلك، إلا إذا كانت على عتبة الخطيئة، ولم يكن جزءًا من خطة هذا الوغد أن يعتدي على الفتاة، أو أن يظلِمَها، قبل أن يجعلها زوجةً له. استمرَّت المُراسَلات بينهما كحبيبَين لفترةٍ قصيرة قبل أن يُكتشَف أمرُها. وبما أنني أقول الحقيقة، يُمكنني كذلك أن أقول إنه قد وقع شِجارٌ — أو ربما عددٌ من الفضائح، في منزل السيدة إتش ... — لم يَقِلَّ عنفًا ووقاحة عن أي شجارٍ حدث يومًا في الطبقات الاجتماعية الوضيعة من المجتمع.

ثارت الأمُّ وبكَت، ونفَّستِ الأختُ الكبرى عن غضبها بعدة أساليب تخيُّلُها أسهل من وصفِها. وكان ردُّ الآنسة إيميلي عليهما بالمِثل، ولم تقتنع بخطأ تصرُّفها. كانت مُستقرة على فكرةٍ واحدة؛ لقد أصبحَت سيدةَ قرارها. كانت مُستعدةً لتحمُّل كل المخاطر. سوف تتزوَّج من الرجل الذي أحبَّته وقتما تُريد. لم يكن على أُمِّها وأختها أن تشغلا نفسيهما بمصيرها أو ثروتها. كانت ستتزوَّجُه في الحال، إذا أرادها. وانتهى النزاع كمعركةٍ متعادلة لا فائز فيها.

في غضون ذلك تراسَل الحبيبان، اللذان كانا مُستعدَّين لاحتمالية حدوث شيءٍ كهذا، وتقابلا. كانت خادمةُ الآنسة إيميلي هي من تُدبِّر موعدَ اللقاء ومكانه. وبعد أُسبوعٍ من اكتشاف الأمر أصبحت إيميلي السيدة ... لم تكن تعلم اسمَ زوجها حينئذٍ، وينبغي ألَّا يعلمه القارئُ أبدًا. كانت نتيجة المُراسَلات السرية زواجًا سرِّيًّا.

سار كلُّ شيء على ما يرام لمدةٍ قصيرة. كان مع العروس بعض النقد السائل، وكذلك العريس. تظاهرت الأم والأخت بلامبالاةٍ غير حقيقية، وكانت السيدة إدواردز مفتونةً للغاية بوضعها الجديد وبأصدقاء زوجها حتى إنها لم تعُد تعبأ بأقاربها في كينسينجتون.

قالت في رسالةٍ إلى أحد أقاربها في الريف: «إن أصدقاء عزيزي تشارلي هم أروع أصدقاء قابلتُهم في حياتي.» كان أولئك الذين سُمح لها برؤيتهم رفاقًا لُطفاء جدًّا، رغم أنه من المُمكن أن أذكر هنا أنه كان له مجموعةٌ أخرى من الأصدقاء، أو سلسلة مجموعات، كانت تصرُّفاتهم ولُغتهم تصدم حتى مفاهيمَها هي عن آداب السلوك، ولم تكن مفاهيمُها تلك من النوع المُغالى فيه أو الصارم. كانوا يتحادثون في موضوعاتٍ ليست أعلى ولا أدنى من مستوى فهم سيدةٍ من طراز بطلةِ قصتي، ويُدخِّنون أفضل أنواع السيجار في حضورها، وكانوا يُصرِّحون لها بعبارات الثناء لأنها كانت تمنحهم تلك الحرية. كانوا

يشربون، لكن دون إفراط، ويمزحون بحُريتهم، «مثلما يفعل السادة والنبلاء»، هكذا قالت.

عندما استُنفِد المخزون الحالي من المال، لم يجد تشارلي صعوبةً في جمع المزيد منه بتوقيع إيصالات أمانة، وبنوعٍ من الضمان أو الرهن لُمتلكات زوجته.

قضى الزوجان الأسابيع الثلاثة الأولى في سكاربرو. وعند عودتهما في الأسبوع التالي، والذي مرَّ وكأنه ثلاثة أشهرٍ على الطريقة التي وصفتُها، وأثناء كل هذه الفترة لم تأتِ ساكنتا كينسينجتون إلى ساكنَي نوتينج هيل، ولا زار ساكنا نوتينج هيل ساكنتَي كينسينجتون. كان كِلا الفريقين يلعب لعبة الانتظار، وكان من الممكن أن تتصالح السيدة العجوز مع ابنتها، لو لم يرفض العزيز تشارلي بعنادٍ شديدٍ أن يتَّخذ هو، أو أن يترك زوجته تتَّخِذ الخطوة الأولى في هذا الاتجاه. كان واضحًا لبعض الناس أنه لم يُرد، وربما كان يُفضِّل ألَّا يحتفظ بصداقته مع أسرة زوجته. ربما كان هذا في الواقع سيعوق خُطَطَه، وكان لديه مُبرراتُه التي تجعله يُفضِّل أن تُعفياه من مَساعيهما الحميدة.

في صباح أحد الأيام كان تشارلي مُرتديًا مِبْذلًا، وطلب قهوته وهو يتثاءب، وكان يُدخن غليونًا مرشوميًّا بكسل، بينما يتظاهر بقراءة الجريدة، تمامًا كما قد يفعل أعزب ذو استقلالية كافية. كانت حبيبته إيميلي تحاول أن تقتل الوقت بإبرةِ كروشيه، أو ربما كانت مشغولةً بشيءٍ ما مُستحوذٍ على تفكيرها، نسيت ما هو. وهنا أُعلِنَ عن قُدوم أحد الضيوف. كان أحد الأصدقاء الرائعين المرِحين الأسخياء، كما يبدو واضحًا، الذين تغنَّت كثيرًا في رسالتها المعروفة بعبارات الإطراء التي كانوا يُلقونها على مسامعها، سوف أُسميه روبنسون.

«يا إلهي! تشارلي، عزيزي، كيف هذا؟ ما الذي حدث في الليلة الماضية؟ يا إلهي! مدام إدواردز — أرجوكِ المعذرة — لقد كدتُ أنساكِ، يا للمُفاجأة!» هكذا ثرثر المُتطفِّل.

أجابه تشارلي: «أوه، لم يحدُث شيءٌ في الليلة الماضية، صدِّقني.» وأردف قائلًا: «لكنَّ الوضع مُمِلٌّ بشدة في لندن الآن، وأنا وإيم كُنا نستمتع ببهجةِ زواجنا في هدوء، كما تعرف، ولم نكن نتوقَّع زيارة راتلبرين هنا الآن قبل بضع ساعات.»

«يا إلهي، إنني أعرف أني مُرَحَّبٌ بي دائمًا، أليس كذلك يا مدام إدواردز؟ وسوف آتي دائمًا عندما أُحب؛ لكن، يا صديقي العزيز، إذا كنتَ ترى لندن مُملةً، لماذا لا تأتي إلى باريس معي أنا وجاك نولان؟»

«هل أنت ذاهبٌ إلى باريس؟ متى؟»

«أوه، لا أدري، فلم نُحدد اليوم بعد، كما قالت الخادمة العجوز عن زفافها، لكنه سيكون في غضون أسبوعٍ تقريبًا، فيما أظن. هل ستأتي؟ يا إلهي، لا تتجهَّمي يا مدام إدواردز؛ اجعلي هذا البائس يأخُذك معه، هكذا أرى.»

«حسنٌ، ما رأيكِ في ذلك يا إيم؟»

كانت إيم صامتة. كان ذلك النوع من الصمت الذي ربما يكون من المَقبول دائمًا تفسيرُهُ على أنه موافقة، وهكذا فسَّر تشارلي قصْدَها به.

«أرى أن إيم تودُّ أن تذهب، لكنها فقط قَلِقَةٌ على جيب زوجها الحبيب. الزوجة الصالحة كنز أيها الشاب راتلبرين. متى ستتزوَّج حقًّا؟»

«كُفَّ عن هذا. متى سنذهب إلى باريس؟»

«أُوه، لنقل يوم الاثنين القادم.»

«الاثنين؟! لا، الثلاثاء؛ عندي موعدٌ مع المحافظ يومَ الاثنين.»

«المحافظ، صحيح؟» وضحك تشارلي وكأنه رأى أن هذا الزعم كان مزحةً جيدةً جدًّا يمكنه الضحك منها دون خوف.

سوف يتساءل القارئ: خوف من ماذا؟

حسنٌ، من أي شيءٍ مثل الكذب أو الرياء، أيها القارئ العزيز.

رأت السيدة إدواردز أن الوقت قد حان لقول وفعل شيءٍ ما، وهكذا، وبالطريقة التي كثيرًا ما تتدرَّب عليها الفتيات، عندما تذهب إحداهن إلى ما يمكن وصفه بحق بـ «مدرسة الكياسة»، جذبَت إليها سبلتَي «حبيبها تشارلي»، وقبَّلَته، وسألَت: «متى سنذهب؟»

«الثلاثاء، أرجوكِ، ليكن الثلاثاء. أي يومٍ تريدينه. الأيام كلها سواء عندي.»

بعد حسْم هذه النقطة، غيَّروا المحادثةَ إلى موضوعٍ تافهٍ يبدو أن هذه المجموعة المُتحذلقة من المخلوقات البشرية قد استمتعوا به. بدا في النهاية أن السيدة إدواردز، في حوالي الساعة الواحدة، أخذت تُفكر أن مظهرها لم يكن لائقًا تمامًا بابنة مليونيرٍ راحل، ولا زوجة سيد نبيل مثل حبيبها تشارلي؛ لذا صعدَت إلى غرفتها في الطابق العلوي، وتركت الرجُلين بمفردهما.

اتَّخذت المحادثة الآن نبرةً أكثر خفوتًا وشكلًا أكثر جدية. كان راتلبرين الآن هادئًا ومنتبهًا. وأصبح تشارلز جادًّا وحاسمًا. سيكون من دواعي سرور القارئ أن يتقبَّل مُبرري لعدم سرد تفاصيل هذه المناقشة، التي كثيرًا جدًّا ما يُقابلها في التقارير الصحفية عن المناقشات البرلمانية، والخُطب التي تُلقى في الاجتماعات السياسية؛ فأصوات المتحدثين،

عزيزي القارئ، إذا سمحتَ لي، لم تكن مسموعةً لي؛ لأنني لم أكن موجودًا في ذلك الوقت. هل هذا التفسير غير مُقنِع؟ انتظر قليلًا، وسيظهر كُنه المحادثة، أو الخطة التي اتَّفقا عليها، في ثنايا هذه القصة.

في يوم الثلاثاء غادرت المجموعة لندن متوجهةً إلى باريس، ووصلوا في الوقت المُحدَّد إلى فندق إ... ب...، وهو «فُندقٌ إنجليزيٌّ» بارزٌ، في شارع س... د... (يجب أن يعذُر القارئ حرصي على تجنُّب إظهار أي شيءٍ قد يكون من شأنه أن يدلَّ على هُوية أُناسٍ أبرياء.)

انقضت عشرةُ أيامٍ أو نحو ذلك في العاصمة المُبهجة، قبل وقوع الحدث الأساسي الذي أنا بصدد أن أقصه عليكم. كان السيد والسيدة إدواردز، وروبنسون، ونولان، بارزين بدرجاتٍ مُعينة في كل مكانٍ من أماكن الترفيه العامة. لا أعرف أنهم قد أُذن لهم بدخول الأوساط الاجتماعية الراقية، لكنَّني تأكدتُ أنهم زاروا خلال الأيام العشرة التي لا تُنسى كل الأماكن تقريبًا المذكورة في دليل السُّيَّاح.

كانت مجموعتي من الضيوف الأثيرين؛ فَسُلوك إدواردز اللطيف، وحديث روبنسون المرِح، وذكاء نولان المُتوقِّد، وحياء السيدة إدواردز — لأنها كانت، كما قالت، أو كما حاولت أن تقول بالفرنسية، مثل سمكةٍ خرجت من الماء — كل ذلك جعلهم صُحبةً لطيفةً على «مائدة المُضيف»؛ ولَّما لم يكونوا في احتياجٍ إلى المال، كان المُضيف والخدَم مسرورين بضيوفهم. قالت سيدةٌ عزباء؛ امرأةٌ إنجليزية، في حوالي الخامسة والثلاثين من العمر، وكانت تميل بعض الشيء إلى النقد القاسي، قالت إن تصرُّفات إيم كانت مُتحررةً أكثر مما ينبغي. وقد زعمت هذه المرأةُ فيما بعد أنها رأت روبنسون يُقبِّلها عدةَ مراتٍ «خِلسةً». إنني بالطبع لا أُصدِّق أنه كان ثَمَّةَ مسحة من الحقيقة في هذا الاتهام تحديدًا، مع أنني مُلزَمٌ أدبيًّا بالاعتراف بأنها لم تكن تُظهر من الاحتراس ما كان ينبغي لها أن تُظهره في اعتقادي. من ناحيةٍ أخرى، ربما يسأل سائلٌ: ألم يُعرِّفها زوجُها بروبنسون ونولان؟ ألم يكونا صديقَيه؟ ألم يضعها هو في طريقهما، وطالبها بالتبسُّط معهما؟ سوف يتقبَّل القارئ تصريحي الجِدِّي، إن كان ذا قيمة، على أن إيميلي لم تكن، لا في فعلها ولا في أفكارها، خائنةً لزوجها.

تلقَّى إدواردز رسالةً مُبهمةً، عن طريق البريد، تتهم زوجتَه بهذا الجُرم المُنافي لآداب الحياة الزوجية. كَتبَت هذه الرسالة، وأنا في حِلٍّ لقول هذا، تلك المرأةُ العزباء، التي كانت تُقيم وقتئذٍ في فندق إ... ب... قرأ إدواردز الرسالة وهو غير مُبالٍ؛ إذ لم يبدُ أي تغيير في سلوكه. ووضع الرسالة بعنايةٍ في جيب أحد المعاطف.

في مكانٍ ما في اليوم التاسع تقريبًا من إقامتهم في باريس، اجتمعت إيم وتشارلي فيما يُسمَّى في البرلمان لجنة الطرائق والموارد. كانت محفظة نقودها فارغةً تقريبًا، وكذلك محفظته. ماذا عساهما أن يفعلا؟ هل يقترضان من روبنسون؟ لا! من نولان؟ لا! سوف يكون هذا مُهينًا للغاية. يجب أن يعود إلى لندن، ويقترض مبلغًا آخر من المال. وكان عليها أن تبقى رهنًا في الفندق إلى أن يتمكَّن من تحريرها. ثلاثة أيام على الأكثر كانت كافية لذلك. بكَتْ أو نشجت بالبكاء بسبب أول افتراقٍ لها عن «حبيبها تشارلي». وعزَّاها بتأكيده لها أنه لن يغيب عنها أكثر من ثلاثة أو أربعة أيام. وهكذا تَقرَّر أن يُغادر في الحال، أعني، في غضون بضع ساعات، وأن يُسرع قدْر استطاعته بالعودة.

عند رحيله سألَته قائلةً: «سوف ترسل لي رسالةً كل ليلة، أليس كذلك يا حبيبي تشارلي؟»

«حبيبتي إيم، من غير المُحتمَل أن أتمكن من فعل هذا وأنا على متن القطار أو الباخرة طوال مدة سفري، إلا في ساعاتٍ قليلة.»

جرت مقابلةٌ بين إدواردز والرجُلين الآخرَين، وذلك عندما أَخبرهما بنيته المغادرَة إلى لندن لأمرٍ خاصٍّ وعاجل، لكنه لن يتأخر هناك سوى أيامٍ قليلة فقط. في غضون ذلك، ترك زوجَته الفاتنة الصغيرة في رعايتهما. وردَّد إدواردز الحديث ذاته عن رحلته، وعن سببها، للضيوف على «مائدة المُضيف»، واستقلَّ قطارًا ليليًّا من سكك حديد الشمال. لكنه لم يُسافر إلى لندن. هل ملأ محفظة نقوده، في الطريق، مرةً أخرى؟ هل تأكد أنه يستطيع الاستغناء عن المال، مثل بيكي شارب في رواية دار الغرور؟ أم اكتشف مخزونًا جيدًا من الأوراق النقدية في جيب ساعته أو محفظة جيبه؟ أنا أميل إلى النظرية الأخيرة. على أي حال، لم يتجاوز إدواردز مدينة بولوني، وبقِي هناك يومًا كاملًا.

في الليلة التالية، عندما انطلق القطار الليلي من بولوني إلى باريس، قطع السيد تشارلز إدواردز تذكرة، وعاد إلى العاصمة الفرنسية. ووصل إلى باريس في منتصف الليل تقريبًا، وتوجَّه مباشرةً إلى فندق إقامته.

أثناء غياب زوج المسكينة إيميلي، كان روبنسون يُرافقها لحمايتها، وفي تلك الليلة دعا هو ونولان أنفسهما لقضاء ساعةٍ أو ساعتَين في غرفة الجلوس عندها. لم تعترِض إيميلي على الإذن الذي منحه صديقا زوجها لأنفسهما. لم ترَ في استقبالهما أي منافاةٍ للياقة والاحتشام، وبذلت غاية وسعها في جعلهما مُرتاحَين. مرَّت الليلة كما مرت الليالي الأخرى، عندما كان الأصدقاء يبقون في البيت، وقبل الساعة الثانية عشرة انفضَّ الجمع الصغير.

سمحت الحاجبةُ للسيد إدواردز بدخول الفندق، دون أن تسأله أية أسئلة، وتوجَّه إلى غرفة نومه. بعد ذلك مباشرةً، صفق الباب بعُنف، بعدما أدار المفتاح من الخارج، وبدأ يصرُخ كالمجنون. كان روبنسون، ذلك الوغد، الذي صاح إدواردز باسمه، نائمًا في مكانه إلى جوار إيميلي! أيقظ هذا الضجيج، في مثل هذا الوقت، نصف النُّزلاء، والضيوف، والخدَم في الفندق؛ وعندما أُدير المفتاحُ مرةً أُخرى، رأى أكثرُ من عشرين شخصًا السيدة إدواردز المسكينة وهي تستيقظ على صوت الضجيج، وتفرك عينيها، وهي غائبةٌ عن الوعي جُزئيًّا، وفي حالة ذهولٍ تام. أيقظت روبنسون لكمةٌ قويةٌ سدَّدها له سيدٌ ريفي، سوف تجدون اسمَه في كتاب بيرك «نبلاء الريف»، لكن يجب ألَّا أذكره هنا. كان ثَمَّةَ مأزقٌ أكثر إيلامًا من مأزق أمينا في الأوبرا التي ألَّفها بيليني؛ وأفظع من أي شيءٍ عرفه القارئُ في حياته.

كان من الممكن أن يُقسِم على ثُبوت الأدلة الواضحة على خطيئة إيميلي عشرون شاهدًا من أشرف الشهود بين كلٍّ من أدلَوا بشهاداتهم يومًا أمام أي محكمةٍ في الدنيا. فلم يظهر للمُشاهدين أيُّ تفسيرٍ على الإطلاق يتوافق مع براءتها. قالت المرأة العزباء، التي كانت حاضرةً في هذا المشهد، إن الأمور انتهت كما كانت تتوقَّع لها أن تنتهي تمامًا. لم تتفاجأ على الإطلاق. كانت مُتعجِّبة فقط كيف أَمكن أن يظل السيد إدواردز المسكين غافلًا طوال هذه المدة عمَّا كان واضحًا للآخرين جميعًا، وأكثر بكثير على شاكلته. تذكر الحاضرون جميعًا، وقد بدءوا الآن يُفكرون في الأمر — أو هكذا قالوا — أنه كان ثَمَّةَ الكثير من مظاهر الحميمية الزائدة غير اللائقة بين روبنسون وإيميلي. نعم! الآن تذكَّروا جيدًا جدًّا النظرات المختلسة بين الآثمَين على «مائدة المُضيف» وأخذ الناس، على مائدة الفندق، خلال الأسبوعين أو الثلاثة التالية، يُعدِّدون مئاتٍ من خُدَع حُبهما المُحرَّم.

أُصيبت إيميلي بنوبةِ حُزنٍ عنيفة. كانت تصرفاتها هستيرية؛ لكن فكرة جريمتها المزعومة ظلَّت مُلازمة لها. لم تكن تتكلَّم عن شيءٍ آخر خلال الفترة التي ظلت خلالها في الفندق. بالطبع تخلت عنها السيدات المُقيمات هناك اشمئزازًا منها، وأحضر المُضيفُ من مكانٍ ما امرأةً فرنسيةً طيبةَ القلب اعتنتْ بها إلى أن وصلَت الأمُّ الأبية من كينسينجتون. عندئذٍ نقلَتها أُمُّها على الفور تقريبًا إلى إنجلترا. ظلَّت السيدةُ العجوز حرونًا مثل الأُخريات لبعض الوقت. لقد أمطرت إيميلي بوابلٍ من التأنيب، مُبينة كيف أدَّت جريمةٌ إلى أُخرى، وجاعلةً العلاقةَ بين الزواج السري والزنا مثل علاقة حتمية بين سببٍ ونتيجته؛ لكنَّ كرب الابنة التعيسة كان شديدًا للغاية، وكانت تأكيداتها على براءتها قويةً جدًّا، لدرجة أن ثقة

الأم تزحزحت في النهاية، وتوصلَت إلى استنتاجٍ جديد مُزدوج؛ وهو أن روبنسون كان نذلًا، وأن إدواردز كان، رغم كل شيء، جديرًا بأن يُرثى لحاله، رغم أنه لم يتصرَّف كما ينبغي لرجلٍ نبيل أن يفعل عندما هرب مع ابنتها.

استخفى روبنسون بقدْر ما أَمكنه بعد بلوغ الأحداث «ذروتها»، وقد قيل لي إنه كان حاذقًا بما يكفي بحيث هرب تلك الليلة إلى غُرفته، حيث لم يخطر على بال أحدٍ أن يلحق به، ولم يكن به سوى كدمةٍ وجرحٍ طفيفٍ أو اثنين، كتذكاراتٍ لسُخط السادة الأرستقراطيين على جريمته. في صباح اليوم التالي دفع فاتورته، وغادر إلى بروكسل. كان من دواعي سرور صاحب الفندق أن يتخلَّص منه دون مزيد ضجيج؛ ولذا انصرف في هدوء. كان من شأن الفضيحة أن تُشوِّه سُمعة الفُندق؛ لذا كان «المُضيف» سيسعد لو أن الضيوف لم يتكلموا في الردهة عن الموضوع. لكنه كان لديه مثَلٌ فرنسيٌّ يساعده، وهو مثلٌ يُوازي الحكمة الإنجليزية القائلة: «ما لا يمكن علاجُه، ينبغي تحمُّله.» لَمَّا لم يستطع إسكاتَهم، ولَمَّا كانوا هم «زبائنه الدائمين الطيبين»، صَبَرَ على هذا الحديث البغيض ريثما انتهى، واحتفظ برأيه في الموضوع لنفسه. فكرةٌ واحدةٌ خطرت بباله واسَتْه عن أي خسارةٍ فعلية أو إزعاج؛ لقد كان يعرف اسم كل نزيلٍ من نزلاء فندقه وعناوينهم المعتادة. سوف يحتاج الزوجُ الجريح هذه المعلومات، وسوف يحتاج مجموعةً منوَّعةً من الخدمات في سبيل الحصول على الدليل ضدَّ زوجته وعشيقها. وسوف يحصل على هذا، لكن عليه أن يدفع مُقابله، وبسخاءٍ أيضًا، مثلما يفعلُ أيُّ سيدٍ إنجليزيٍّ نبيل.

أما عن السيد تشارلي إدواردز، فاسمحوا لي أن أكتفيَ الآن بالقول إنه أيضًا غادر الفندقَ في اليوم التالي، وكان يبدو عليه حُزنٌ شديد. لم يُودِّع زوجته. وقال للمُضيفة إنه لن يحتمِل هذا اللقاء. ورجاها أن تعتني بإيميلي إلى أن تصل أمُّها. أرسل تشارلي رسالةً، مليئةً بالشجن الرجولي، إلى كينسينجتون. ووصل إلى لندن بالقطار من مدينة فولكستون في مساء اليوم الذي غادر فيه باريس.

بعد وقتٍ قصيرٍ جدًّا من وقوع الأحداث الأليمة الأخيرة، استدعاني المحامي الذي أشرتُ إليه. كان في حيرةٍ من أمره. لقد كان يعتقد هو أن المُرجَّح أن خُدعةً واحتيالًا شديدَي البشاعة والقسوة قد ارتُكبا، ولكن الغياب الواضح لوجود دافعٍ لتدمير سُمعة الزوجة الشابة كاد يؤدي به إلى استنتاجٍ أنها كانت مُذنبةً لا محالة. لقد قال له محامي الزوج بوضوحٍ شديدٍ إنه يجب أن يحصل الزوجُ على مالٍ إذا كان من الممكن إقناعُه بالامتناع عن

جلْب العار على عائلتها ومعارفها. مع ذلك، كما لاحظ محاميَّ، كان الرجل سيحصُل على القدر نفسه، أو في الواقع أكثر بكثيرٍ مما يمكن أن يحصل عليه الآن، من المال، بالإضافة إلى زوجةٍ شابةٍ جميلةٍ على قدْر عالٍ من الاحترام، لو لم تكن الفضيحة قد وقعَت أو جُلبت. وأصابتني الحيرةُ أنا أيضًا.

أول صعوبة واجهَتني كانت في معرفة وظيفة السيد إدواردز أو أسلافه. قيل آنذاك إنه كان في أوروبا، بعيدًا عن إنجلترا، وقد ارتأيت أنه ليس من الحكمة إرسال طلبٍ مباشرٍ إلى مُحاميه في هذا الشأن؛ إذ كان من الممكن أن يجعله هذا يأخذ حذره. لم تكن السيدة إتش ...، والدة إيميلي، تعلم أيَّ شيءٍ عنه. لقد تعرَّفَت عليه في معرضٍ للزهور، وأعطاها عنوانه على أحد الفنادق، زاعمًا أنه عاد لتوِّه من فرنسا، حيث أقام سنواتٍ عديدة. لم أستطع التعرُّف عليه من خلال صورةٍ أو مُنمنمة. ولم يكن للسؤال في الفندق الذي كان يعيش فيه، عندما كان يُغازل زوجته، ليُسفر عن اكتشاف شيءٍ عنه سوى اليوم الذي وصل فيه إلى هناك، لكنَّ أحدًا لم يعلم من أين أتى.

أخيرًا اهتديتُ إلى الطريق الصحيح، وفي خلال شهرٍ كنتُ قد نصبتُ شَرَكي الذي سقط فيه أحد المُجرمين الحقيقيين؛ وهو نولان. عندما كان هناك، بدأ الخوف يتملَّكه، كما يفعل الأوغادُ دائمًا، على سلامته الشخصية؛ ولمَّا كان أقلَّهم جُرمًا، فقد وصلتُ إلى حدِّ أن وعدتُه بمكافأةٍ إذا تمكَّن من إقناعي بأنه قد قال كلَّ شيءٍ عن القضية. وقلتُ له إنه إن لم يفعل هذا فسأُسلِّمه للشرطة في الحال، وألمحتُ بُلطفٍ إلى أن لديَّ مبررًا للاعتقاد أنه كان مطلوبًا في قضيةٍ أخرى. لقد أخبرَني بما أعتقد أنه القصة كاملةً، وتركتُه وأرسلتُ معه رسالةً إلى المحامي الذي استعان بخدماتي، واقترحتُ فيها أن يُعطَى عشرةَ جنيهاتٍ إسترلينية في الحال، مع تعهُّدٍ بإعطائه أربعين جنيهًا أخرى، إذا أمكن التأكُّد من صحة قصته في نقطةٍ أخرى.

دون أن أكشف أمر نولان، علمتُ كلَّ شيءٍ عن روبنسون والسيد تشارلي إدواردز، والمكيدة الشنيعة من الألف إلى الياء.

كانت المؤامرة باختصارٍ هكذا. لاحظ روبنسون وصول الأسرة إلى كينسينجتون. قُيِّم موقف الأم وابنتيها. لقد اعتقدوا أن إحدى البنتَين، نظرًا لعدَم معرفتها بسكان العاصمة الذين يربو عددُهم على عشرة آلاف، سوف توافق على أول طلبٍ للزواج يُقدِّمه شخصٌ يُعتقد فيه أنه «نبيلٌ حقيقي». واختير إدواردز من قِبل رفاقِه ليؤدي دور العاشق. كان الوحيد على الإطلاق القادر على أداء ذلك الدور ببراعة. كان ما يحتاجون إليه هو النقد

السائل. لم يكن أيٌّ منهم ليسعد بزواجه من إيميلي. كان لكلٍّ منهم «ارتباطه العاطفي»، الذي لم يُرد الانسحاب منه، ولم يكن أيٌّ منهم يستطيع أن يهرب من عبودية ميثاق الجريمة الذي أصبح طرفًا فيه.

لقد فحصوا الوصية قبل إتمام المكيدة، وبعدما درسوها بتمعُّنٍ توصلوا إلى أن الخطوات التي اتخذوها ستمكنهم من الحصول على مالٍ سائلٍ أكثر بكثيرٍ من أي طريقةٍ أُخرى. إذا أمكنهم إلحاق عارٍ بالأسرة، فإن أفرادها جميعًا سيوافقون على أي تسويةٍ ماليةٍ لمنع انتشار الفضيحة. كل شيءٍ قصصتُه في هذه القصة من البداية إلى النهاية حدثَ كما خطط له إدواردز، وروبنسون، ونولان، ربما باستثناء رسالة المرأة العزباء التي شكَّلت حلقةً قيِّمةً في سلسلة الأدلة.

لم أتأكد من نولان إن كانت هذه المرأة الودودة عضوة في التحالف، أم حليفة لا تعي حقيقة ما تفعل. اكتشفتُ كذلك، عن طريق التحقيق، أن إدواردز كان يعيش مع امرأةٍ لسنواتٍ عدة، وأنها أصبحت فيما بعد أُمًّا للعديد من أولاده. كانت هذه المرأة شريكةً في المؤامرة بموافقتها على التضحية بإيميلي. لقد كانت على علمٍ بدَورها السلبي في المؤامرة وأدته بالتخلي عن حبيبها لأداء دوره؛ وهو أن يُصبح العريس لزوجةٍ ينوي تدميرها.

كان باستطاعتنا، لو دعت الضرورة، أن نُثبت كل هذا عن طريق قَسَم نولان، والذي كان سيُبرهن على صدقه بمجموعةٍ من الأدلة المادية. إلى أيِّ مدًى كان من الممكن أن يتغلَّب هذا على الدعوى القوية، الظاهرة الوجاهة، التي شهد عليها الشهود المُستقلون في باريس، ليس أنا من يقول هذا، ولا يُهمني أن أُقدِّم رأيًا في قيمة الأبعاد الأخرى للقضية والتي أثقلت عقول وقلوب أسرة الزوجة التعيسة. لو نجحنا في منع الطلاق الذي كان مُقررًا أن يُقدَّم طلبٌ له، فسيتركز جوهر براعتنا في محاصرة الوغد الذي جار عليها من مدخل حقوق الزوج في دخل الزوجة طوال حياتها، إلا إذا أنقذتها العناية الإلهية بإزاحته هو أولًا من هذه الحياة، وحينئذٍ سيكون على الزوجة أن تُمدِّد هذا الرباط الزوجي البغيض إلى أن يموت.

لو وافقنا، في سبيل تحقيق خلاصها، على توسُّله من أجل الطلاق — بافتراض أنه مُستعدٌّ، في هذه الحالة، أن يُنفِّذه — سنكون قد سمحنا له أن يَسِمها، رغم براءتها، بوصف الزانية البغيض. وقد شعرنا أن هذه كانت معضلةً عسيرة. أو أننا، إذا افترضنا أن جريمة الأنذال الثلاثة أُدخلت في نطاق القانون الجنائي، فستنكشف الفضيحة الشنيعة. ولتجنُّب حدوث أيٍّ من الأمرين البغيضَين، تقرر، بعد مشاوراتٍ عديدة بين المحامي

والمستشار القانوني لعائلة إتش ... — ومشاوراتٍ بين والدة إيميلي، وأوصيائها، والمحامي — ومقابلاتٍ بين مُحامِيَي الطرفين، والكثير من التفكير المُضطرب من قِبل الضحية وصديقاتها، تقرَّر أنه سيكون من الحكمة الصائبة أن يُلزَم الزوجُ — بموجب صكِّ انفصال وتعهد، تلحق به عقوباتُه إذا انتهك تعهُّدَه في أي يومٍ من الأيام — بألَّا يُضايق زوجته المظلومة ظُلمًا بليغًا. وفي سبيل تنفيذ هذه الوثائق القانونية، دفع الأوصياء والأسرةُ للسيد تشارلي إدواردز مبلغ ٣٠٠٠ جنيه إسترليني.

ممَّا يُواسي المرء أن يعلم أن الأوغاد لم يستمتعوا طويلًا بمالهم الحرام؛ فقد سقطوا جميعًا في يدَي العدالة في أوقاتٍ مختلفة. نُفي إدواردز إلى ما وراء البحار، وعندما أخلَّ بإطلاق سراحه المشروط في أستراليا، تحوَّل إلى أحد قاطني الأدغال. وأثناء مهاجمته، هو وبعض رفاقه، لقوات حراسةٍ كانت ترافق الذهب المُستخرج من المناجم في بالارات أثناء نقله إلى ملبورن، أُصيب بطلقٍ ناريٍّ في القلب. أعتقد أن روبنسون ونولان على قيد الحياة، ويُكفِّران عن ذنوبهما في السجن. أما إيميلي، التي وجدت ما يواسيها في أعمال البر، فتعيش باسمٍ مُستعارٍ في إحدى المدن داخل أوروبا، بعيدًا عن إنجلترا، حيث لا أحد يعلم بقصتها السوداوية.

هنداوي